فقه الابتلاء وتحمل البلاء
فى تاريخ الأنبياء والصالحين

إعداد الدكتور:
أحمد محمد حمود عبيد
أستاذ مساعد جامعة الملك عبد العزيز
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الدراسات الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

لم تكن العقيدة في فهم المؤمنين مجرد مواعظ تلقى أو أوامر تعطى أو قوانين تسطر، بل كانت مفاهيم راسخة واضحة مقنعة، موافقة للفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]

فصنعت خير أمة عرفتها البشرية في تاريخها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2]

إنها الأمة التي جمعت بين المثال والواقع؛ فترجمت مثاليات الإسلام إلى واقع، وارتفعت بالواقع البشري إلى درجة المثال.

وعندما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي- ﷺ- قالت: (كان خلقه القرآن) (٣)

وبعض السلف وصفوا صحابة رسول الله - ﷺ- بأنهم كانوا مصاحف تمشي على الأرض؛ لترجمتهم ما جاء في القرآن واقعا معاشا. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[4]

حتى بلغوا تلك القمم السامقة التي وعاها التاريخ، وسطرها صفحاته بأحرف من نور.

---

[1] - سورة الروم ٣٠

[2] -سورة آل عمران ١١٠

[3] - رواه مسلم ١٢٣٣

[4] - سورة الإسراء ٩

إنها العقيدة التي انبثق عنها منهج رباني متكامل، يصلح الحياة البشرية؛ لأنه منزّل من عند اللطيف الخبير الذي يعلم من خلق، ويعلم ما يصلحه وما يصلح له.

والله تعالى هو الذي يحقّ له أن يقرر منهج الحياة للإنسان؛ لأنه هو خالقه، وهو أعلم بما خلق، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فكانت العقيدة ثابتة في كيان المسلمين الأوائل ثبوت الجبال الرواسي؛ عرفوا الحق فالتزموا به، وعرفوا الخير فسلكوا مسالكه، ولم تكن المحن والابتلاءات لتقعد بهم ، بل كانت حافزا لما هو أفضل، وأن الله يقدر عليهم المصائب لما يريده بهم من الخير؛ فيعلي درجاتهم، ويكفر سيئاتهم، ويزيدهم إيمانا ويقينا.

والعقيدة تحول الصبر إلى نصر، والهزيمة إلى نجاح، والتقصير إلى زيادة في العمل، وعلو في الهمة، ودفع إلى الأمام.

فاستفاد المسلمون مما وقع لهم، وفقهوا أبعاده ومعانيه؛ فحولوا المحنة إلى منحة. والأمثلة على ذلك كثيرة؛ ففي غزوة أحد أصيب المسلمون بهزيمة شديدة بعد نصرهم في الجولة الأولى، فكان منهم الشهداء والجرحى، ومن هام على وجهه من أثر الصدمة، حتى عمت الإصابة رسول الله – ﷺ–؛ وذلك بسبب مخالفة بعض الرماة أمر النبي – ﷺ–، بعدم مغادرة أماكنهم، قال تعالى : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)

كان هناك عتاب من الله تعالى لعباده المؤمنين بأن عصيان أمر الرسول –

---

(١)– سورة الأعراف ٥٤

(٢) – سورة آل عمران ١٦٥

ﷺ- كان سببا في الهزيمة، ولكن في المقابل كانت هناك حكمة ربانية من هذه المصيبة؛ فميزت المؤمنين من المنافقين، وهذا مكسب كبير للجماعة المسلمة بأن تعرف عدوها من صديقها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)

والرسول - ﷺ- لم يدع آثار الهزيمة تحط من عزيمة المسلمين، بل عمل على تدارك ما حصل بسرعة فاقت التوقع، فجمع المسلمين وهم ما زالوا بجراحاتهم الجسدية والنفسية للقاء العدو مرة أخرى.

واستجاب الصحابة لأمر القائد والمربي - ﷺ- بنفوس رضية حتى استحقوا مدح الله لهم والثناء عليهم بعد لومهم الأول، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢)

وهنا تحولت المحنة إلى منحة من الله تعالى، فحلّ الأمن محلّ الخوف، والثبات والتماسك بدل التشتّت والفرقة، والإيمان بدل الشكّ، وبدل المصيبة التي حلت بهم، أصبحوا بنعمة من الله وفضل، كأنهم لم يمسسهم سوء من قبل ذلك؛ فانقلب الحزن إلى فرح، والذل إلى عز ونصر، بفضل الله واتباع رضوانه.

هكذا فقه الصحابة سنن الله في خلقه، واستفادوا من المحن؛ فحولوها بصبرهم وفقههم إلى منح، حتى أصبح الابتلاء عندهم سبيلا إلى حسن البلاء والعطاء.

***

---

(١) -سورة آل عمران ١٦٦

(٢)- سورة آل عمران ١٧٢

خطة البحث:

تناولت هذا الموضوع من خلال عشرة فصول قسمتها كما يلي:

الفصل الأول: الابتلاء سنة الله في خلقه.

الفصل الثاني: ابتلاء طالوت وجنوده بجالوت وجنوده.

الفصل الثالث : الابتلاء تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين.

الفصل الرابع : وجوب الصبر وتحمّل المصاب في سبيل الله مهما عظم، وعدم الاستكانة للعدوّ.

الفصل الخامس: مؤمنو سحرة فرعون وحلاوة الإيمان رغم مرارة الزمان والمكان .

الفصل السادس: فتية أهل الكهف والفرار إلى الله تعالى من القصور إلى المغاور والكهوف.

الفصل السابع: ابتلاء أم موسى بفلذة كبدها وصبرها على فراقه.

الفصل الثامن: الطاهرة المطهرة الصديقة بنت الصديق وإفك المنافقين في القديم والحديث .

الخاتمة والمصادر والمراجع ثم الفهرس .

منهج البحث:

عملت في هذا البحث وفق المنهج الآتي:

اخترت من الآيات البينات الكريمات ما يوافق عنوان البحث من أهمية العقيدة بالنسبة للمؤمن، في فقه ما وقع من الابتلاء وتحمل ما أصابه من البلاء بنفس رضية، وكيف استفاد من هذه التجربة، وعلم أبعادها.

وهذه الآيات يكثر تناولها من قبل الدعاة لمشابهتها واقع الأمة اليوم رغم البعد الزمني الشاسع بين الحاضر ووقوع تلك الأحداث.

وكان اختياري الآيات من السور التالية: البقرة – آل عمران – الأعراف – الكهف – النور – القصص – العنكبوت.

واخترت من كتب التفسير أشهرها، ومن المفسرين أطولهم باعا وأشهرهم إمامة وقبولا، أمثال الأئمة: القرطبي – الطبري – الألوسي – الزمخشري – الفخر الرازي – ابن كثير – الشوكاني – اسماعيل البروسوي. وغيرهم.

ولعلي استشهدت كثيرا بكتاب (في ظلال القرآن) لسيد قطب؛ لأني وجدت في تحليله للآيات، واستعراضه للأحداث كيف أنه يترلها مترلة الواقع القائم، مع تشبيه ما فيها من الحاضر بما حصل في الماضي، وإنزال ما يقع اليوم من أحداث بما وقع بالأمس.

وكأن الشخصيات هي نفسها رغم اختلافها في الأسماء والأمكنة، غير أن هدفها واحد، كل ذلك بأسلوب جميل مشوق، وكأنك ترى ما مضى بالبصر لا بالبصيرة وحدها.

ثم أقوم بتسليط الضوء على ما ورد في الآيات من أهمية عقيدة التوحيد في تحمل الابتلاء وتحويل مساره من واقع سلبي إلى آخر إيجابي، وكيف نجح أصحاب العقيدة من تجاوز ما أصابهم حتى حولوا ما يظهر أنه هزيمة إلى نصر، وأخذ العبرة مما حدث، والاستفادة في المستقبل مما جرى في الماضي واستثماره في مصلحة الدعوة.

اعتمدت على آيات كتاب الله من خلال التفسيرات التى سطرها لنا كبار النفسرين قدامى ومحدثين .

أما السنة فقد أفدت منها من خلال مطالعتى للأحاديث الصحيحة فى البخارى ومسلم المتصلة بموضوع البحث .

أسأل الله التوفيق والسداد، وجزى الله خير الجزاء كل من أسدى إلي نصيحة، والحمد لله في الأولى والآخرة.

***

الفصل الأول :

الابتلاء سنة الله في خلقه

قال تعالى : (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(١)ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (١)

يقول ابن كثير – رحمه الله – : الاستفهام هنا إنكاري، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث: "أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب (وفي رواية : قدر) دينه؛ فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة" (٢)

ويقول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه –: "لا يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه" (٣)

وقوله تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (٤)

ولهذا قال ههنا: (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (٥) أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه .

---

(١) – سورة العنكبوت ١–٢

(٢) – رواه ابن ماجه ٤٠٢٣ وصححه الألباني ١ / ٢٢٥

(٣) – رواه البخاري رقم٥٢١٠

(٤) – سورة البقرة ٢١٤

(٥) – سورةالعنكبوت ٣

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أهل السنة والجماعة، يقول ابن عباس – رضي الله عنه – في قوله (إلا لنعلم): إلا لنرى؛ وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالوجود، والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود. (١)

ويقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢)

يبين الله تعالى في الآيات أهمية الصبر بالنسبة للمؤمن، وقد تكرر ذكر الصبر في القرآن كثيرًا؛ ذلك لأن الله تعالى يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق القويم بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة لكل طارىء، ولا بد للصبر من هذا كله؛ فالطاعات بحاجة إلى صبر، والجهاد بحاجة إلى صبر والبعد عن المعاصي بحاجة إلى صبر وكذلك كيد الأعداء بشتى صنوفه، كما أن المؤمن بحاجة إلى الصبر على بطء النصر أحيانًا، والصبر على قلة الناصر، وانتفاش الباطل، وعلى طول الطريق، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب ومضاضة الأعراض.

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر إذا لم يكن هناك زاد ومدد .

ومن هنا قرن الله تعالى الصلاة إلى الصبر؛ فهي المعين الذي يجدد الطاقة والزاد الذي يزود القلب، فيطول حبل الصبر ولا ينقطع، ثم يضاف إليه الرضى والبشاشة والطمأنينة والثقة واليقين بالله تبارك وتعالى (٣).

---

(١) – تفسير القرآن الكريم : ٤١٥/٣

(٢) – سورة البقرة ١٥٣.

(٣) – في ظلال القرآن ٢ /١٣٥ بتصرف

يقول ابن كثير: والصبر أنواع: صبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على المصائب والنوائب، وصبر على فعل الطاعات والقربات. (١)

ثم يمضي السياق في التعبئة لمواجهة الأحداث، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

ولا بد من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. لابد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة التي تضر على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي التي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين.

فكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها، كانت أعز عليهم وكانوا أضنّ بها.

كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها، وصبرهم على بلائها، إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر، ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا.

ولكي يشتدّ عُود أصحاب العقيدة ويقوى فلابد من البلاء، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه ولا تحت مطارق الشدائد .

والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

---

(١) – تفسير القرآن العظيم ١ /٢٠٢

والقاعدة لهذا كله، الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، فلا تجد سندًا إلا سند الله، وفي هذه اللحظة تنجلي الغشاوات وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا قوة إلا قوة الله ولا حول إلا حوله، ولا إرادة إلا إرادته، ولا ملجأ إلا إليه..

وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح، والآيات القرآنية هنا تصبوا بالنفس إلى هذه المعاني. (١)

(وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

قال سعيد بن جبير: ما أعطي أحد في المصيبة ما أعطيت هذه الأمة.(٢)

إنا لله، كلنا، كل مافينا، كل كياننا، وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير، التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهًا لوجه بالحقيقة الوحيدة وبالتصور الصحيح .

هؤلاء هم الصابرون الذين سيبلغهم الرسول – ﷺ– بالبشرى المنعم الجليل. وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل.

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ)

صلوات من ربهم، يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه ﷺ الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم، ورحمة، وشهادة من الله بأنهم هم المهتدون، وكل أمر من هذه هائل عظيم.

يقول صاحب الظلال:

وبعد، فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف ونقص الأموال والأنفس والثمرات .

---

(١) – في ظلال القرآن جـ٢ / ١٣٩ بتصرف

(٢) – تنوير الأذهان ١ /١٢٢

التعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف...

إن الله يضع هذا كله في كفة، ويضع في الكفة الأخرى أمرًا واحدًا ... صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون. إنه لا يعدهم هنا نصرًا، ولا يعدهم هنا تمكينًا، ولا يعدهم هنا مغانم، إلا صلوات الله ورحمته وشهادته.

لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثم يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون الى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفوا إليها قلوبهم وحدها، فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنما هو لدعوة الله التي يحملونها(١).

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء؛ جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة. إن الكفة ترجح لهذا العطاء؛ فهو أثقل في الميزان من كل عطاء. أرجح من النصر، وأرجح من التمكين، وأرجح من شفاء غيظ الصدور. هذه هي التربية التي أخذ الله بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بني البشر أجمعين.

وهكذا نرى أهمية العقيدة التي فهمها الصحابة الكرام، والتي علمهم إياها المصطفى خير معلم – ﷺ– ففقهوا معنى الابتلاء، ومن ثَمَّ تحملوا البلاء، فاستحقوا ذلك الوصف الرباني الأسمى ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

---

(١) – في ظلال القرآن ج٢ / ١٤٠ بتصرف.

وصدق الله في علاه، فكانوا خير هداة، وخير من اهتدى بعد الأنبياء والمرسلين.

وفي قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : ((نعم العِدْلان، ونعمت العلاوة. (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فهذا العِدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا)) (١).

***

(١) – تفسير القرآن العظيم مجلد ١ ص ٢٠٣

الفصل الثاني:

ابتلاء طالوت وجنوده المؤمنين بجالوت وجنوده الكافرين

قال تعالى: (فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)(١)

يخبر الله تعالى عن طالوت انه لما ابتعد عن داره مع جنوده قال: (إن الله مبتليكم بنهر) فأراد اختبار من معه من الجنود وهو مقدم على معركة ومعه جيش من أمة مهزومة ، يريد أن يقاتل أمة العمالقة (٢) وهي أمة غالبة، وهنا تتجلى حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل الذي وفقه الله لاختبار هذا الجيش الذي يقوده ليظهر معدن المجاهد المقدام من المتخاذل الجبان، يجب أن يرى في جيشه من هو الذي يمتلك الإرادة التي تضبط الشهوات والنـــزوات، وتصمد للحرمان والمشاق وتعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.

والقائد الناجح لابد له من اختبار إرادة جيشه وصموده وصبره؛ صموده أولا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب، واختار تجربة العطش ليعلم من يصبر معه على المر وشظف العيش ممن يؤثر الدنيا وينقلب على عقبيه، وصحت فراسته حينما اكتشف أن أغلب من معه لا يستطيعون تحمل

---

(١) -سورة البقرة ٢٤٩-٢٥١

(٢) - تنوير الأذهان ١ / ٢٢٦

العطش فكيف بالقتل والقتال.

قال تعالى : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) مع أنه أباح لهم أن يغترف كل منهم غرفة بيده، تبل ظمأه دون ارتواء، ولكن الامتحان كان عسيرا على الكثيرين حينما رأوا الماء؛ نسوا أوامر القائد، بل وضربوا بها عرض الحائط، واستسلموا لأهوائهم فثبت للقائد أن هؤلاء لا يصلحون لمهام القتال، فمن لم يصبر على العطش هو من باب الأولى ألا يصبر على قتال العدو وبذل الدماء في سبيل إعلاء كلمة الحق، ونشر الفضيلة بين البشر. ولو انفصل هؤلاء المخالفون، – وكان من الخير أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف– لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد والإرادة الجازمة والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي، ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها، ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى بل مضى في طريقه(١).

والنهر قيل: هو بين الأردن وفلسطين(٢) واسمه نهر الشريعة(٣). (فشربوا منه إلا قليلا منهم)، قال السدي(٤) : شرب منه ستة وسبعون ألفا وتبقى منهم أربعة آلاف.

وبعد هذه التجربة الصعبة ونكوص العدد الأكبر من الجيش عن الانصياع لأمر طالوت جاء الامتحان الأصعب، وهو المواجهة مع العدو قال تعالى: (فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ)

---

(١) – في ظلال القرآن ج٢٦٢/٣ بتصرف

(٢) – فتح القدير ٣٣٩/١

(٣) – تفسير القران العظيم ١ /٣١٠

(٤) – صفوة التفاسير ١٥٨/١

فقد صاروا قلة بعد أن كانوا كثرة، وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته بقيادة جالوت صاحب الاسم المخيف لما له من تجربة في الحرب ومن البطش والسلب والنهب.

إنهم مؤمنون، وأثبتوا ذلك بطاعتهم لقائدهم وعدم الانصياع لرغباتهم الدنيوية، ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم، فيحسبون أنهم أضعف من مواجهته، إنها التجربة الحاسمة، تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور، وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم، وأصبحت لهم موازين جديدة يستخدمونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدها الناس من واقع حالهم.

وفي هذا الوقت الصعب والموقف الخطير، برزت الفئة المؤمنة، الفئة القليلة المختارة، والفئة ذات الموازين الربانية :

(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)(١)

هكذا: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة) هذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقو الله.

يقول صاحب الظلال (٢): القاعدة أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار، ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة؛ قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله (بإذن الله) ويعللونه بعلتة الحقيقية: (والله مع الصابرين) فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل .

---

(١) – سورة البقرة ٢٤٩

(٢) – سيد قطب ج٢/٢٦٣

ويمضي السياق القرآني ليبين أن الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة بالله، وأنه مع الصابرين، أن هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها، هي التي تقرر مصير المعركة بعد أن تجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه وتطلب النصر منه وحده، وهي تواجه الهول والرعب : (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(٢٥٠)فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)

(قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا) وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالًا للهول والمشقة، (وثبت أقدامنا) فهي في يده سبحانه يثبتها كما ثبتها في بدر فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد.

(وانصرنا على القوم الكافرين) فقد اتضح الموقف: إيمان تجاه كفر، وحق إزاء باطل، ودعوة إلى الله بنصر أوليائه المؤمنين على أعدائه الكافرين؛ فلا تلجج في الضمير، ولا غبش في التصور ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق [١].

وكانت النتيجة التي ترقبها أهل الإيمان، وانتظروها بفارغ الصبر، واستيقنتها قلوبهم فهزموهم بإذن الله .

والهزم هو الكسر (٢) وتؤكد الآية هذه الحقيقة (بإذن الله) ليعلمها المؤمنون وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون؛ أن النصر بيد الله وليس بكثرة الجنود والعدة، وإنما هو فضل من الله مالك الملك، وقاهر الجبابرة سبحانه وتعالى، وإن كان هذا المعنى لا يمنع المسلم من أخذ أسباب القوة

---

[١] – في ظلال القرآن ج٢/٢٦

[٢] – فتح القدير ١/٣٣٩

على عدوه بل أمر الله عباده بالأخذ بالأسباب في قوله تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (١) ومن هذا الباب لبس عليه الصلاة والسلام الدرع في الحرب، ولبس الصحابه الكرام الدروع كذلك، واستعملوا أفضل ما عندهم من سلاح لمقاتلة أعدائهم وما حفر الخندق حول المدينة، إلا من الأخذ بالأسباب التي أمر الله عباده أن يأخذوا بها.

وتبرز الآية دور داوود عليه السلام، قال تعالى: (وقتل داود جالوت)

وداود كان فتى من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكًا قويا وقائدا مخوفا حتى زعم بعض الناس أنه كان يهزم الجيش وحده (٢).

ولكن الله شاء أن يري القوم وقت ذلك وفي كل وقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها، وحقائقها لا يعلمها إلا الله، فليس على المؤمنين إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ويفوا الله بعهدهم، ثم يكون ما يريده الله، وقد أراد الله أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم. وقيل بأن طالوت اختار داود لمقاتلة جالوت فمكنه الله منه فقتله (٣) وانهزمت العمالقة (٤) بمقتل طالوت.

ومن حكمة الله لهذه المعركة أن تسلم داود الملك بعد طالوت وورثه ابنه سليمان فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل، جزاء انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود .

(وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)

---

(١) – سورة الانفال ٦٠

(٢) – تنوير الأذهان ١ /١٩٤

(٣) – الجامع لاحكام القران القرطبي/١٠٦٤ جامع البيان في تاويل القران الطبري ٣٩٦/٢

(٤) – العمالقة فرقة من قوم عاد كانوا باريحاء وهي مدينة الجبارين في الغور من أرض الاردن في جبال صعبة المسالك. راجع معجم البلدان ١٦٥/٢١

وكان داود عليه السلام ملكًا نبيا علمه الله صناعة الحرب من دروع وغيرها كما علمه منطق الطير وأعطاه الصوت الجميل فجمع الله له النبوة والملك ولم يكن ذلك لأحد قبله من بني إسرائيل (١) .

والآيات تتجه في سياقها إلى هدف أهم، وهو إعلان النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية.

حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى أنها ليست المغانم والأسلاب، وليست الأمجاد والهالات، إنما هو الصلاح في الأرض، وإنما هو التمكين للخير بالكفاح مع الشر .

(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) .

يقول سيد قطب رحمه الله: وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث لتبرز من خلال النصر القصير حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى وتنافس الطاقات وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق الصاخب الموّار .

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات، ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف .

ولقد كادت الحياة كلها تأسن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم، واتجاهاتم الظاهرية القريبة لتنطلق الطاقات كلها تتراحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدًا يقظة عاملة مستنبطة من ذخائر الأرض مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون

---

(١) – تنوير الأذهان ١٩٤/١

الصلاح والخير والنماء، يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة تعرف الحق الذي بينه الله لها، وتعرف طريقها إليه واضحًا، وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرار الحق في الأرض، وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل وإلا أن تحتمل في سبيله ما تحتمل في الأرض طاعة لله وإبتغاءً لرضاه. وهنا يمضي الله أمره وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هي العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع في يد القوة الخيرة البانية، التي استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه، وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها في الحياة، ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب في النهاية وتنتصر، ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض وتمكين الصلاح في الحياة إنها تنتصر لأنها تمثل غاية عليا تستحق الانتصار(١).

ثم يختم الله تعالى هذه الأحداث بقوله (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ) أي ما قصصناه عليك يا محمد من الأمور الغريبة والقصص العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل، هي من آيات الله وأخباره المغيبة التي أوحاها الله إليك بالحق بواسطة جبريل الأمين (وإنك لمن المرسلين) اي وأنك يا محمد لمن جملة الرسل الذين أرسلهم الله لتبليغ دعوة الله عز وجل(٢).

يقول صاحب تنوير الأذهان (٣) في قوله تعالى (وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ) : لولا أن صرف الله الناس الذين يباشرون الشر والفساد ببعض آخر منهم بردهم عما هم عليه بما قدر الله من القتل، لفسدت الأرض وبطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها.

وقيل: لولا دفع الله المؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض

---

(١) – في ظلال القرآن ٢٦٤/٢

(٢) – صفوة التفاسير ١٥٩/١

(٣) – تنوير الأذهان ١٩٤/١

ومن فيها، ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار وبالصالح عن الفاجر.

ثم إن فيه تنبيهًا على فضيلة الملك وإنه لولاه لما انتظم أمر العالم ولهذا قيل: الدين والملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع للآخر، لأن الدين أساس والملك حارس، وما لا أساس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع .

يقول صاحب الظلال في قوله تعالى (وإنك لمن المرسلين): ومن ثم نتلو عليك هذه الآية ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع أعصارها، وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحله، ونورثك ميراث المسلمين أجمعين (١).

وهكذا نرى كيف أن الله تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذنه وأمره عز وجل، بعد أن صبرت وتحملت، أعطاها الله ما تمنت.

فكان النصر المؤزر للمؤمنين والهزيمة الساحقة لأعداء الدين، وهذا درس قصه الله على نبيه – ﷺ– ليبلغه لأمته، إنه درس حافل بالتجارب، طوف الله به الجماعة المسلمة في شتى المجالات وهو يربيها ويعدها للدور العظيم المناط بها والذي قدره الله لها في الأرض وجعلها قيمة عليه، وجعلها أمة وسطًا تقوم على الناس بهذا المنهج الرباني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله القائل : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (٢)

ووسطية هذه الأمة أن تكون في المقدمة تنير الطريق وتوجه الركب، ووسطيتها أن تكون الأعلى على غيرها دينًا وشريعة ونظامًا وأخلاقًا وتطبيقًا لتكون خير أسوة، وأفضل قدوة، وعندئذ تستحق أن تكون شاهدة على غيرها من الأمم، ومن ثم يكرمها الله تعالى بأن يجعل رسوله الخاتم عليها شهيدًا، ونعمت الشهادة، ونعم الشهيد خير الخلق – ﷺ–.

---

(١)– –في ظلال القران ٢–٢٦٥

(٢) – سورة البقرة ١٤٣

الفصل الثالث:

الابتلاء تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين

قال تعالى: (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) (١)

يبين تبارك وتعالى لعباده المؤمنين أن الوهن والضعف والحزن على ما فات، والندم على ما جرى وانقضى، والخوض فيه ليس من الصفات الحميدة التي أرادها الله لعباده، الذين يمثلون الأسوة والقدوة لغيرهم من بني البشر .

فوصفهم تعالى بقوله: (وأنتم الأعلون) فأنتم الأعلون في العقيدة فتعبدون الله وحده بينما غيركم يعبد العبيد، وأنتم الأعلون تسجدون لخالق السماوات والأرض وغيركم يسجد لحجارته أو للكواكب أو لأي شيء مما خلق الله .

وأنتم الأعلون لمنهجكم الذي أنزله الله بينما غيركم يعيش على منهج وضعه عبيد لله، وأنتم الأعلون لدوركم الأعلى في هداية البشرية جمعاء، بينما هم شاردون عن المنهج الصحيح وضالون عن الطريق المستقيم، وأنتم الأعلون لمكانتكم في الأرض فلكم وراثة الأرض التي وعدكم الله بها قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

---

(١) – سورة آل عمران ١٣٩-١٤٣

خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (١)

بينما يعد الله الذين آمنوا بالاستخلاف وعد المشركين بالفناء والنسيان فالله تعالى أكّد حق الإيمان للعلوّ كما أكّد تعالى عدم الحزن وعدم الوهن للمؤمنين الصادقين.

إنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا على أن تكون لكم الغلبة بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص الذي يميز الله به الخبيث من الطيب قال تعالى: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أي أصابتكم جراحة في أحد فقد أصاب الكفار ببدر مثلها على أيديكم.

يقول صاحب تفسير روح البيان (٢): إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله مالا يرجون .

قوله تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) قال ابن كثير (٣): أي نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكم.

يقول سيد قطب (٤) : ومداولة الأيام وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطىء وميزان لا يظلم، والرخاء في هذا كالشدة، وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل. والنفس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه في الحالين إلى الله، وتوقن أن ما أصابها من الخير أو الشر فبإذن الله.

---

(١) – سورة النور ٥٥

(٢) – تنوير الأذهان ٢٧٩/١

(٣) – تفسير القرآن ٤١٧/١

(٤) – في ظلال القرآن ٤٧٥/٤

وكان الله يربي هذه الجماعة وهي في مطلع خطواتها لقيادة البشرية، فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر العجيب، وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما، ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة، لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة، ولتزيد طاعة لله وتوكلًا عليه، والتصاقا بركنه ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين.

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

قال ابن عباس: (لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء) (١)

يقول الشوكاني (٢): أي ليعلم الله الذين اتقوا، فعلنا ذلك – وهو من باب التمثيل– أي فعلنا فعل من يريد أن يعلم، لأنه سبحانه لم يزل عالمًا، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم على ما يقع عليه الجزاء كما علمه علمًا أزليا .

(ويتخذ منكم شهداء) وهو تعبير يدل على معنى عميق؛ إن للشهادة مكانة عالية، لذلك يختار الله الشهداء من بين المجاهدين ويتخذهم لنفسه سبحانه، فهنيئا لمن اختاره الله وانتقاه وأكرمه. إن هؤلاء الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه ويخصهم بقربه سبحانه وتعالى آمنوا به وتجردوا له وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء في سبيله، وعلى أن حياة الناس لا تستقيم إلا بهذا الحق، لذلك لم يألوا جهدا في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس (٣).

(والله لا يحب الظالمين) والظلم كثيرًا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك بوصفه أظلم الظلم وأقبحه يقول تعالى في وصايا لقمان لابنه: (وَإِذْ قَالَ

---

(١) – تفسير القرآن ٤١٧/١

(٢) – فتح القدير ٤٦٧/١

(٣) – في ظلال القرآن ٤٧٦/٤

لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (١) والتعبير القرآني بأنّ الله لا يحبّ الظالمين، يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين الذين لا يحبهم الله .

جاء في تفسير روح المعاني (٢) : أي إن الله يبغض الذين يضمرون خلاف ما يظهرون وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يُغلّبهم أحيانًا استدراجًا لهم وابتلاءً للمؤمنين .

(وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)

ثم يبين تعالى عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث في تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى، ولتكون أداة من أدوات قدر الله في محق الكافرين. والتمحيص لا يكون إلا بعد الفرز والتمييز، والتمحيص عملية تتم في داخل النفس تمهيدًا لإخراج الدّخل والدّغل منها لتصبح نقية بيضاء واضحة لا غبش فيها يعكر صفوها .

والله سبحانه هيأ الأحداث ليربي هذه الجماعة المؤمنة المختارة لقيادة البشرية فأذن بتمحيصها لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها، وليتحقق على يديها ما أراده الله منها من الهداية للناس، ومجابهة أعداء الله الذين يصرون على حرب هذا الدين.

(ويمحق الكافرين) وفي هذا تحقيق لسنة الله تعالى في دفع الباطل بالحق حتى يزهقه.

قال صاحب فتح القدير(٣) في قوله تعالى (وليمحص الله الذين آمنوا): أي ليخلّص المؤمنين من ذنوبهم .

---

(١) – سورة لقمان ١٣

(٢) – تنوير الأذهان ٢٧٩/١

(٣) – محمد الشوكاني ٤٦٧/١

وقوله (ويمحق الكافرين) أي يستأصلهم بالهلاك .

وقال صاحب تفسير روح البيان (١) : في قوله تعالى (ويمحق الكافرين): يهلكهم والمحق: نقص الشيء قليلًا قليلًا، والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله – ﷺ– يوم أحد وأصرّوا على الكفر فقد محقهم الله عز وجل .

ثم يقول تعالى : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) يقول ابن كثير (٢): أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء .

يقول سيد قطب (٣) : في قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين):

إن صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور، تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت، فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان، بينما هي التجربة الواقعية والامتحان العملي.

وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء ثم الصبر على تكاليف الجهاد وعلى معاناة البلاء. وفي النص القرآني لفتة ذات مغزى: (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)؛ فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون؛ إنما هو الصبر على تكاليف هذه الدعوة أيضًا، التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ويختبر فيها الإيمان .

إنما هنالك المعانات اليومية التي لا تنتهي، معاناة الاستقامة على أفق الإيمان، والاستقرار على مقتضياته في الشعور والسلوك، والصبر في أثناء ذلك على

---

(١) – إسماعيل البروسوي ٢٧٩/١

(٢) – تفسير القرآن ٤١٧/١

(٣) – في ظلال القرآن ٤٧٧/٤

الضعف الإنساني في النفس وفي الغير ممن يتعامل معهم المؤمن في حياته اليومية ، والصبر على الفترات التي يستعلي فيها الباطل وينتفش ويبدو كالمنتصر .

والصبر على طول الطريق وبعد الشقة وكثرة العقبات، والصبر على وسوسة الراحة وهفوة النفس لها في زحمة الجهد والكرب والنضال، والصبر على أشياء كثيرة، ليس الجهاد في الميدان إلا واحدًا منها، في الطريق المخفوف بالمكاره طريق الجنة التي لا تنال بالأماني وبكلمات اللسان (١) .

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)(٢)

هو خطاب لمن كان يتمنى القتال والشهادة في سبيل الله ممن لم يحضروا يوم بدر فإنهم كانوا يتمنون يومًا يكون فيه قتال، فلما كان يوم أحد مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله – ﷺ– بالخروج لم يصبر بعضهم كما صبر أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك – رضي الله عنهم– (٣)

(مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ) أي القتال أو الشهادة التي هي سبب الموت ، وقد ورد النهي عن تمني الموت فلابد من حمله هنا على الشهادة.

قال القرطبي(٤) : وتمني الموت من المسلمين يرجع الى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم، لأنه معصية وكفر، ولايجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فينالون الصبر على الجهاد وإن أدى الى القتل.

قال ابن كثير (٥) في قولة تعالى (فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ):

---

(١) – في ظلال القرآن ٤/٤٧٧

(٢) – سورة آل عمران ١٤٣

(٣) – فتح القدير ١/٤٦٧

(٤) الجامع لاحكام القران ٢/١٤٦٣

(٥) – تفسير القرآن ١/٤١٧

شاهدتم الموت وقت حد الأسنة واشتباك الرماح وصفوف الرجال للقتال. والمتكلمون عن هذا يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ماليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش، وعداوة الذئب.

قال الشوكاني (١): رأيتم القتال الذي هو سبب الموت وقد رأيتموه معاينين له حين قتل من قتل منكم .

قال سيد قطب(٢): وقدر الله في إعداد الجماعة المسلمة للقيادة يمضي في طريقه بشتى الأسباب والوسائل، وشتى الملابسات والوقائع، يمضي أحيانا عن طريق النصر الحاسم للجماعة المسلمة ، فتعيش وترتفع ثقتها بنفسها في ظل العون الإلهي وتجرب لذة النصر وتصبر على قسوته، وتجرب مقدرتها على مغالبة البطر والزهو والخيلاء ، وعلى التزام التواضع والشكر لله.

ويمضي أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب والشدة ، فتلجأ الى الله وتعرف حقيقتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله ، وتجرب مرارة الهزيمة، وتستعلي مع ذلك على الباطل ، بما عندها من الحق المجرد ، وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهوتها ، ومزالق أقدامها ، فتحاول أن تصلح من هذا كله في الجولة القادمة ، وتخرج من النصر ومن الهزيمة بالزاد والرصيد، ويمضي قدر الله وفق سنته لايتخلف ولايحيد. وهكذا تصنع العقيدة في نفوس المؤمنين الصادقين فتأطرهم على الحق أطرا، حتى إذا ابتلوا وصبروا أعطاهم الله القوة بعد الضعف، ومكنهم من أعدائهم فانتصروا عليهم بعد أن استفادوا من تجاربهم وارتفعوا على ذواتهم، فصفت نفوسهم، وازداد إيمانهم عمقا وقوة.

***

---

(١)- فتح القدير ٤٦٩/١

(٢) - في ظلال القرآن ج٤٨٧/٤

الفصل الرابع

وجوب الصبر في سبيل الله وتحمل المصاب

مهما عظم وعدم الاستكانة للعدو

قال تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(١)

يقول سيد قطب(٢): ثم يضرب الله للمسلمين المثل في إخوانهم المؤمنين قبلهم، في موكب الإيمان الممتد على طول الطريق، الضارب في جذور الزمان، من أولئك الذين صدقو إيمانهم وقاتلوا مع أنبيائهم، فلم يجزعوا عند الابتلاء وتأدبوا وهم مقدمون على الموت بالأدب الإيماني في هذا المقام، مقام الجهاد، فلم يزيدوا على أن يستغفروا ربهم، وأن يجسموا أخطاءهم فيروها إسرافا في أمرهم، وأن يطلبوا من ربهم الثبات والنصر على الكفار، وبذلك نالوا ثواب الدارين؛ جزاء إحسانهم في أدب الدعاء ، وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا مثلا يضربه الله للمسلمين .

لقد كانت الهزيمة في أحد هي أول هزيمة تصدم المسلمين الذين نصرهم الله ببدر وهم ضعاف قليل، فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية، فلما أن صدمتهم أحد، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لاينتظرونه.

ولعله لهذا طال الحديث حول هذه الواقعه في القرآن، واستطرد السياق بأخذ المسلمين بالتأسي تارة، وبالاستنكار تارة، وبالتقرير تارة وبالمثل تارة؛ تربية

---

(١) – سورة آل عمران١٤٦– ١٤٨

(٢) – في ظلال القرآن ج٤/٤٨٢ بتصرف.

لنفوسهم ،وتصحيحا لتصورهم ،وإعدادا لهم.

فالطريق أمامهم طويل، والتجارب أمامهم شاقة، والتكاليف عليهم باهظة والأمر الذي يندبون له عظيم، والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام لايحدد فيه نبيا ولا يحدد فيه قوما، إنما يربطهم بموكب الإيمان، ويعلمهم أدب المؤمنين، ويصور لهم الابتلاء كأنه المظهر في كل دعوة وفي كل دين، ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء، ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين، ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد، وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

يقول الشوكاني(١): وكأين بمعنى كم، أي كثير من الأنبياء قاتل معه ربيون ويقول في تفسير روح البيان (٢): الربيون، مقتدون: (رِبِّيٌّ) والربي: منسوب إلى الرب كالرباني، والمعنى: كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، علماء أتقياء، أو جماعات كثيرة، فما فتروا، وما انكسرت همتهم لما أصابهم في أثناء القتال في سبيل الله من الجراح وسائر المكاره اللاحقه للكل.

يقول ابن كثير(٣) في قوله تعالى (وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا): قال قتادة: وماضعفوا بقتل نبيهم ، وما استكانوا: فما ارتدوا عن نصرتهم ولاعن دينهم؛ إذ قاتلوا على ماقاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) أي يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال في سبيل الله(٤)

---

(١) – فتح القدير ٤٦٨/١

(٢)– تنوير الأذهان ٢٨٣/١

(٣) – تفسير للقرآن ٤١٩/١

(٤)– صفوة التفاسير ٢٣٣/١

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

يقول سيد قطب: لم يطلبوا نعمة ولا ثراء، بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء، لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، لقد كانوا أكثر أدبا مع الله وهم يتوجهون إليه، بينما هم يقاتلون في سبيله، فلم يطلبوا منه سبحانه إلا غفران الذنوب، وتثبيت الأقدام، والنصر على الكفار.

فحتى النصر لايطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار، إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم .

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا، أعطاهم الله من عنده كل شيء؛ أعطاهم من عنده كل مايتمناه طلاب الدنيا وزيادة، وأعطاهم كذلك كل مايتمناه طلاب الآخرة ويرجونه .

(فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ) وشهد لهم سبحانه بالإحسان، فقد أحسنو الأدب وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم، وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب.

(وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) ومحبة الله للعبد رضاه عنه وإرادة الخير به، فهي مبدأ لكل سعادة(١).

قال صاحب تفسير روح البيان: هي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا: (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين، كأن الله تعالى يقول لهم: إذا اعترفت بإساءتك وعجزك، فأنا أصفك بالإحسان، وأجعلك حبيبا لنفسي، حتى يعلم أنه لاسبيل للعبد الى الوصول الى حضرة الله ، إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز (٢).

---

(١)- في ظلال القرآن ج٤/٤٨٣ بتصرف.

(٢) - تنوير الأذهان ١/٢٨٣

هكذا كان موقف أصحاب العقيدة الممتد في جذور التاريخ من المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم، الذين وقفوا مع أنبيائهم في السراء والضراء، يقاتلون عدو الله وعدوهم الذي أراد استئصال عقيدة التوحيد ليستمر في تضليل عباد الله عن الحق إلى مهاوي الشيطان وشركه، ووقف أهل العقيدة صامدين أمام كل الجيوش المعبأة لقتالهم والمهيأة لسحق الدين الرباني في زعمهم، إلا أن الله كان للأعداء بالمرصاد؛ فثبت الذين آمنوا رغم ما أصيبوا به من جراحات في أموالهم وأبدانهم، فلم يضعفوا ولم يخضعوا للباطل مهما قويت شوكته، وتذكروا في هذا الموقف الصعب أن النصر بيد الله، فبادروا بالاستغفار وطلب العفو من الله تعالى، ثم طلبوا منه أن يثبت أقدامهم خشية أن تزل من ضراوة المعركة، ثم طلبوا النصر من الله على القوم الكافرين الذين يحاربون شرع الله وحملة دعوته.

وعندما وصلت أنفسهم لهذا السمو، وأرواحهم إلى هذا المستوى من التعلق بالعزيز الجبار، أنزل الله نصره ووعدهم بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وأخبرهم بأنه يحب المحسنين أمثالهم؛ فقد أحسنوا وصبروا وتحملوا، فآتاهم الله ما أرادوا، ونالوا ما ابتغوا وزيادة، والله الكريم المنان، فلا حدود لعطائه سبحانه وتعالى.

***

الفصل الخامس

مؤمنو سحرة فرعون وحلاوة الإيمان رغم مرارة الزمان و قساوة المكان

قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) [١]

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)

أمر الله سبحانه رسوله موسى عندما جاء السحرة بسحرهم أن يلقي عصاه (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) أي العصا تلقف أي تبلع وقيل تلقم قال الشاعر :

أنت عصا موسى التي لم تزل تلقم مايأفكه الساحر[٢]

قال الطبري [٣]: كانت حبالهم وعصيهم كأمثال الجبال قد ملأت الوادي.

قال ابن كثير(٤):(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ) أي تأكل (مَا يَأْفِكُونَ) أي ما يلقونه ويوهمون أنه الحق وهو باطل. قال ابن عباس رضي الله عنه: فجعلت لاتمر بشيء

---

[١]- الأعراف ١١٧-١٢٦

[٢] - فتح القدير ٢٤٣/٢

[٣] - جامع البيان١٣ /٢٨

[٤]- تفسير القرآن ٢٤٧/٢

من حبالهم ولامن خشبهم إلا التهمته، فعرف السحرة أن هذا شيء من السماء ليس بسحر.

(فَوَقَعَ الْحَقُّ) أي ثبت وصدق موسى عليه السلام في قوله (إني رسول من رب العالمين) حيث صدقه الله بما أظهره على يده من المعجزة الباهرة (١).

(وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وبطل إفك السحر وكذبه.

(فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ) أي غلب فرعون وقومه في ذلك المجمع العظيم وصاروا ذليلين(٢).

قال صاحب التنوير(٣): أصبحوا أذلاء مبهوتين. وقال في فتح القدير(٤): أذلاء مقهورين.

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

يقول صاحب الظلال: ولكن المفاجأة لم تختم بعد، والمشهد مايزال يحمل مفاجأة أخرى أكبر وأعظم؛ إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب، المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين.

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، ومدى مايمكن أن يبلغ إليه ، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة فيه حين تنكشف له، لأنه أقرب إدراكا لهذه الحقيقة ممن لا يوقنون من هذا الفن إلا القشور، ومن هنا تحول السحر من التحدي السافر الى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين، ولكن الطواغيت المتجبرين

---

(١) – تنوير اللأذهان ١/٥٦٠

(٢) – صفوة التفاسير ١/٤٦٤

(٣) – تنوير الأذهان ١/ ٥٦٠

(٤)– فتح القدير ٢/٢٤٣

لايدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان، ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس، يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب – وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء– . ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك دبيبه في القلوب ولم يتابع خطاه في النفوس، ولم يفطن إلى مداخله في شعاب الضمائر، ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل عرش الطاغية من تحته، مفاجأة استسلام السحرة لرب العالمين، رب موسى وهارون، بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين .

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)(١).

هكذا... آمنتم به قبل أن آذن لكم! كأنما عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق وهم أنفسهم لاسلطان لهم عليها، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم وهم أنفسهم لايملكون من أمرها شيئا، أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم، وهم أنفسهم لايمسكون مداخلها، أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو يثبت في الأعماق، أو يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور وهو يبعث من شعاب اليقين، ولكنه الطاغوت! جاهل غبي مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور، ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز.

(إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا) وفي آية أخرى (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ).

والمسألة واضحة المعالم؛ أنّ دعوة موسى إلى (رب العالمين) هي التي تزعج وتخيف، أنه لابقاء ولاقرارات لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين، وهم

---

(١) – سورة الأعراف ١٢٣

إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شرعه وإقامة أنفسهم أربابا من دون الله، يشرعون للناس مايشاؤون، ويعبّدون الناس لما يشرعون. إنهما منهجان لايجتمعان، ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين، فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقي السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين(١).

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي القاطع: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل... وسيلة الطواغيت قديما وحديثا في مواجهة الحق، الذي لايملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلي فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، عندها لاتقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع، لأن الأفق المشرق المضيء أمامها هناك، فهي لاتنظر إلى شيء في الطريق مما يعرقل مسيرتها.

قال قتادة: كان سحرة فرعون في أول النهار كفارا سحرة وفي آخره شهداء برة(٢).

وفي قول فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ قال الطبري(٣): معنى من خلاف: أي هو أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله

---

(١) – في ظلال القرآن م٣–١٣٥٠

(٢) – البحر المحيط ٣٦٤/٤

(٣) – االجامع لاحكام القران٣٤/١٣

اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القطع.

وفي قوله: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) قال ابن عباس رضي الله عنه: كأن أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون(١).

وقوله: (ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) الصلب: هو التعليق على الخشب حتى الموت تنكيلا بهم(٢).

قوله تعالى: (قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا) إنه الإيمان الذي لايخاف ولا يتزعزع، كما أنه لايخضع أو يخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره.

(قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ) إنها معركة العقيدة بين أهل الإيمان وأهل الطاغوت .

قال الشوكاني(٣): أي إن فعلت بنا هذا الفعل (القتل) فبعده يوم الجزاء سيجازيك الله بصنعك، ويحسن إلينا بما أصابنا في ذاته، فتوعدوه بعذاب الله في الآخرة، لما توعدهم بعذاب الدنيا.

قوله تعالى: (وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا)

قال الزمخشري(٤): أي ماتكره منا ولا تعيب علينا إلا ماهو أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان.

(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه (٥).

---

(١) – تفسير القران العظيم ٢٤٨/٢

(٢) – صفوة التفاسير ٤٦٤/١

(٣) – فتح القدير ٢٤٥/١

(٤)– الكشاف ١٤٢/٢

(٥) – تفسير القران العظيم ٢٤٨/٢

(وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) أي ثابتين على مارزقتنا من الإسلام غير مفتونين (١).

يقول سيد قطب: ويقف الطغيان عاجزا أمام الإيمان، وأمام الوعي، وأمام الاطمئنان، يقف الطغيان عاجزا أمام القلوب التي خيل اليه أنه يملك الولاية عليها، كما يملك الولاية على الرقاب، ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه لأنها من أمر الله، لايملك أمرها إلا الله، وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا استعصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان؟ لإنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بانتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار الإنسان على الشيطان.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية.

فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة، والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب، وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب.

إنه موقف حاسم في تاريخ البشريه بإعلان إفلاس المادية، فهذه القلة التي كانت منذ لحظة قريبة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتُمنّى بالتقرب من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد، وتقبل صابرة محتسبه على التنكيل والتصليب، مع أنه لم يتغير في حياتها المادية شيء، ولكن الذي تغير هو الإيمان الذي أكرمهم الله به فسرى في قلوبهم سريان الماء العذب البارد في جوف العطشان فأنار الله بصائرهم، فرأوا الحق والعدل والصدق، وعلموا أن الله هو القادر وهو العاطي، وأن فرعون وملأه ليسوا إلا

---

(١)- روح البيان ٥٦١/١

عبيدا من عباد الله ، وسما إيمانه إلى الأفاق العليا تاركا الطين لأهل الطين.

ويذهب التهديد، ويتلاشى الوعيد، ويمضي الإيمان في طريقه، لايلتفت ولايتردد ولا يحيد(١).

وهكذا تنتصر العقيدة على مغريات الدنيا وخرافة فرعون وضلاله، وينتصر أهل الإيمان على المحن والشدائد، ويصبرون على البلاء الذي أدى إلى موت الأجساد، لتبقى الأرواح حية تنبض بالإيمان والاستعلاء على الكفر، ويكرمهم الله تعالى بأن ذكرهم في كتابه الكريم تشريفا وتخليدا لهم إلى قيام الساعة.

* * *

(١)- في ظلال القرآن م٣/١٣٥٢ بتصرف

الفصل السادس

فتية أهل الكهف والفرار إلى الله

قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا(١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا)(١)

تعرض قصة أصحاب الكهف نموذجا للإيمان في النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذة النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة.

(أَمْ حَسِبْتَ) الخطاب لمحمد – ﷺ- والمراد (أمته). و(أم) منقطعة مقدرة بـ (بل) (أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ) الكهف هو الغار في الجبل (وَالرَّقِيمِ) قيل لوح حجري نقش عليه أسماء أهل الغار ودينهم ومم هربوا (٢).

(كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) أي ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطتنا فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك، من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله أعجب من

---

(١) – سورة الكهف٩–١٦

(٢)– تفسير روح البيان ٣٧١/٢

أخبار أصحاب أهل الكهف كما قال مجاهد (١).

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) أي التجأ مجموعة من شباب أشراف الروم أكرههم (دقيانوس) على الشرك، فأبوا وهربوا إلى الكهف واتخذوه مأوى. (٢)

قال القرطبي : الفتية: من الفتوة وهي اجتناب المحارم، واستعجال المكارم.(٣)

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا وقدر لنا من أمرنا رشدا؛ اجعل عاقبتنا خيرا(٤).

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) أي أنمناهم بسد آذانهم بالنوم الغالب على سماع الأصوات، سِنِينَ عَدَدًا: ذوات عدد. ويستفاد من وصف السنين بالعدد الكثرة(٥).

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) أي أيقظناهم من تلك النومة، قال القرطبي: (لنعلم)، عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، ومشاهدته، وإلا فقد كان الله تعالى علم أي الحزبين أحصى الأمد، والظاهر أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنو لبثهم قليلا والحزب الثاني أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم. وقال مجاهد أمدا تعني عددا(٦).

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) يقول الطبري (٧): نحن يا محمد نقص عليك خبر هؤلاء الفتية بالصدق واليقين

---

(١) – تفسير القرآن العظيم ٣/٧٧

(٢) – تنوير الأذهان ٢/٣٧٢

(٣) – الجامع لاحكام القران ١٠/٣٤٩

(٤) – تفسير القرآن العظيم ٣/٧٧

(٥) – فتح القدير ٣/٢٧٨

(٦) – الجامع لاحكام القران ١٠/٣٦٤

(٧) – جامع البيان في تاويل القران ١٧ /٦١٥

الذي لا شك فيه. (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) زدناهم إيمانا بربهم وبصيرة بدينهم حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ماكانو فيه من خفض العيش ولينه إلى خشونة المكث في كهف الجبل.

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) قال الألوسي(١): سكناها عن التزلزل بما أسكنا فيها من اليقين فلم يسنح فيها هواجس التخمين، ولا وساوس الشياطين، ويقال أيضا: رفعناها من حضيض التلوين إلى أوج التمكين.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) إلهامهم كيف يتدبرون أمرهم. (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) فإذا هي ثابتة راسخة مطمئنة إلى الحق الذي عرفت مقرة بالإيمان الذي اختارته.

(إِذْ قَامُوا) والقيام حركة تدل على العزم والثبات فقالوا: (رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فهو رب هذا الكون كله (لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا) فهو واحد بلا شريك.

(لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) وتجاوزنا الحق وحدنا عن الصواب. ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه، ويستنكرون المنهج الذي يسلكون في تكوين العقيدة.

(هَؤُلاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ) فهذا هو طريق الاعتقاد؛ أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول، وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب على الله (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا).

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما، لاتردد فيه ولاتلعثم؛ إنهم فتية أشداء في أجسامهم، أشداء في إيمانهم، أشداء في استنكار ماعليه قومهم .

ولقد تبين الطريقان، واختلف المنهجان، فلا سبيل إلى الالتقاء، ولا

---

(١) – روح البيان ٦١٥/١٧

للمشاركة في الحياة، ولابد من الفرار بالعقيدة، إنهم ليسوا رسلا إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا مايتلقاه الرسل. إنما هم فتية تبين لهم الهرب في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، أو هم لايطيقون كذلك أن يداوروا القوم أو يداروهم، ويعبدوا مايعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله. والأرجح أن أمرهم قد انكشف، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) وهنا يتكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة؛ فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم ، ويجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة...

هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ...

هؤلاء يستروحون، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة (يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) ولفظة (ينشر) يلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح؛ فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها، وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء.

إنه الإيمان، وماقيمة الظواهر، وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية، إن هنالك عالما آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن، عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان (١).

يقول القاسمي في قوله تعالى (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ): زعم قوم أن الأية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقا، وهو

---

(١) – في ظلال القرآن ج٨٢/١٥

خطأ، فإنما تشير إلى التأسي بأهل الكهف في الاعتزال إذا اضطهد المرء في دينه وأريد على الشرك). (١)

والغزالي ذهب إلى هذا المعنى؛ حيث قال في إحيائه: "وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون، وإنما اعتزلوا الكفار". قلت: وفي هذا رد على من زعم بأن العزلة أفضل في المجتمعات الإسلامية التي ابتليت بأنظمة فاسدة تحكم بالطاغوت، وتحادُّ شرع الله، ولم يعلم هؤلاء بأن فعلهم هذا هو تقوية لهذة الأنظمة، وإطالة لبقائها بدل العمل على إنهائها، وإنما تكون العزلة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) بمثابة المجاهد الذي خرج من المعركة ليصلح رمحه ويشحذ سيفه ويرجع بقوة أشد وعزيمة أمضى، أما الذي خرج ولم يرجع فهو قد فر من الزحف ويخشى أن يكون من الذين قال الله فيهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)(٣) إن الدعوة إلى الاعتزال في وقت يضيق فيه على الدعاة إلى الله، لهي دعوة مشبوهة لترك الظالم المستبد يعيث في الأرض الفساد، وتأمين الأجواء له ليستمر في طغيانه، فإذا سكت الدعاة إلى الله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمن سيقوم بهذا الواجب بعد ذلك؟ إن هذا العمل بمثابة إشارة خاطئة لمن لا باع لهم في الدعوة إلى الله، ولاعلم لهم بفقهها، أن يتقدموا الصفوف ليسدوا الثغرة التي تركها الدعاة، فيخبطون خبط عشواء، وهنا تكون الطامة عندما يتسخط الناس منهم فتجد الأنظمة الفاسدة فرصتها لضربهم على أنها تلبي مطالب الناس، لا على أنها تنفذ أجندتها الخبيثة.

---

(١) – – محاسن التأويل باب ١٦ سورة الكهف آية ١٦

(٢) – مجموع الفتاوى ٢١٦/٨

(٣) – سورةالأنفال ١٥-١٦

الفصل السابع:

ابتلاء أم موسى بفلذة كبدها وصبرها على فراقه

قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)(١).

لقد ولد موسى عليه السلام في ظل أوضاع قاسية حيث الخطر محدق به من كل جانب بعد ان أمر فرعون الطاغية بقتل كل مولود ذكر بناء على رؤيا رآها، وأوّلت له على أن مولود ذكرا من بني إسرائيل آن أوان ولادته سوف ينتزع العرش منك وتكون نهايتك على يديه (٢).

يقول القرطبي في قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) كان وحي إعلام لا إلهام (٣).

وقيل الوحي هنا الإلهام، لأن ظاهر الوحي مخصوص بالأنبياء(٤).

---

(١) – سورة القصص ٧–١٣

(٢) – فتح القدير ٤/ ١٥٤ تنوير الأذهان ١٣٩/٣

(٣) –الجامع لاحكام القران ٣٥٠/١٣

(٤) – روح المعاني ٨٥/١٥

وهاهي ذي أم موسى حائرة به خائفة عليه، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين، وترجف أن تتناول عنقه السكين، هاهي ذي بطفلها الصغير في قلب المخاضة، عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه، عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة، هاهي ذي وحيدة ضعيفه عاجزة مسكينة.

هنا تتدخل القدرة الإلهية فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرف : (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي) يالله!، يالقدرة الربانية، توحي لأم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه وهو في حضنك، وهو في رعايتك، إذا خفت عليه وهو على صدرك، إذا خفت عليه (فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل (١)(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي) أي إنه في رعاية اليد التي لا أمن إلا بجوارها ، اليد التي لاخوف معها ، اليد التي لاتقرب المخاوف من حماها، اليد التي تجعل النار بردا وسلاما، وتجعل البحر ملجأ ومناما.

(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده، (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) وتلك بشارة الغد، ووعد الله أصدق القائلين.

يقول سيد قطب: هذا هو المشهد الأول في القصة، مشهد الأم الحائرة، الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح، ويترل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردا وسلاما(٢).

وعلى الرغم من مهابة الموقف وشدته وخطورتة أبى أهل البلاغة والفصاحة إلا أن يدخلوا فيدلوا بدلوهم فقالوا: إن في الآية (وأوحينا الى ام موسى ... الخ) أمران، ونهيان، وبشارتان،

أما الأمران فهما: أ- أرضعية ب- فألقيه في اليم.

---

(١) - تفسير القران ٣٩٢/٣

(٢) - في ظلال القرآن ج٤٣/٢٠

وأما النهيان: أ- لاتخافي ب- ولاتحزني.

وأما البشارتان: أ- إنا رادوه إليك ب - وجاعلوه من المرسلين(١) .

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ) وأم موسى لم تلقه في اليم إلا خوفا عليه من آل فرعون ومع ذلك (الْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ) أين المفر وأين المهرب، ولكنها قدرة الله تتحدى بطريقة واضحة فرعون وهامان وجنودهما، إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم وذواتهم، ويبثون العيون والأرصاد كي لايفلت منهم طفل ذكر، فهاهي القدرة الربانية تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر، وأي طفل؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين، وهاهي تلقيه بين أيديهم مجردا في الظاهر من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد، هاهي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر.

ولكن هذا كله لا ليفرح فرعون وإنما (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) ليكون لهم عدوا يتحداهم، وحزنا يدخل الهم على قلوبهم. قال محمد بن إسحاق: اللام هنا (لام العاقبة) لا (لام التعليل) لأنهم لم يريدوا التقاطه، وإنما قيضهم الله لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه (٢).

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ) خاطئين في كل مايأتون وما يذرون، فقد قتلوا لأجله ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ماكانو يحذرون(٣).

(وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) لما رآه فرعون هم بقتله خوفا من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه

---

(١) – محمد أبوطالب شاهين :مؤتمر الدعوة وإعداد الدعاة ، الذي عقد في الجامعة الإسلامية عام ١٣٩٧ للهجرة

(٢) – تفسير القران العظيم ٣٩٣/٣

(٣) – تنوير الأذهان ١٤٠/٣

وتذب دونه وتحببه إلى فرعون...

فقالت: (قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) فقال فرعون: "أما لك، فنعم! وأما لي، فلا!" فكان كذلك، وهداها الله بسببه، وأهلكه الله على يديه(١).

(لَا تَقْتُلُوهُ) قول لامرأة فرعون؛ قالت لزبانية فرعون: لاتقتلوه فإن الله أتى به من أراض بعيدة وليس من بني إسرائيل، ثم عللت ماقالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم أو التبني له فقالت: (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا) فنصيب منه خيرا (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) وكانت لاتلد،،ن فاستوهبته من فرعون فوهبه لها(٢)، (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أي لايدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة(٣).

قال الطبري في قوله تعالى (لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا): إن آسية زوجة فرعون كانت تلاعب موسى من حبها له، ثم أعطته لفرعون كي يلين قلبه عليه، فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون: "علي بالذباحين!" فقالت آسية: "إنما هو صبي لايعقل! وإنما صنع هذا صباه" ثم ساق قصة وضع الجمر والياقوت لإقناع فرعون بأنه صبي لايعقل مايفعل، فإذا بموسى يمد يديه إلى الياقوت فأخذ جبريل بيده إلى الجمر حتى لايقتله فرعون، ووضع الجمر في فمه فأحرقت لسانه فأصبح لثغة. من هنا طلب موسى من ربه عندما أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى دين الحق: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ أي يفهموا ما أخاطبهم وأراجعهم به من الكلام. (٤)

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

---

(١) –تفسير القرآن ٣٩٣/٣

(٢) – فتح القدير ١٥٥/٤

(٣) – تفسير القران ٣٩٣/٣

(٤) –جامع البيان في تاويل القران ٥٢٦/١٩

يعود سياق السورة إلى أم موسى صاحبة القلب الملهوف الواله، لقد ألقت بطفلها إلى النهر، طبقا للإيحاء الذي سمعته، ولكن أين هو الآن ياترى؟ وماذا فعلت به الأمواج؟ ولعل ضميرها أنبها كيف فعلت مالم تفعله أي مرأة قبلها، وكيف طلبت له السلامة في هذا اليم الشاسع العميق، وكيف استسلمت لذلك الإيحاء الغريب؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينه صورة حية وكأنك تراها تتحرك امامك.

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا) ... لاعقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصرف. قال مجاهد وعكرمة وقتادة: فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى(١).

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِه) تنشر سرها للناس وتذيع أمرها، وتهتف أنا أضعت طفلي، أنا رميته في اليم، فهل من رآه؟ هل من يعرف شيئا عنه؟ وهل أصلح أن أكون أما؟

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) شددنا عليه، وثبتناها على الصبر والتحمل.

(لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) المؤمنين بوعد الله الذي لايتخلف، الصابرين على ابتلائه مهما كانت المحن، السائرين على هداه رغم الفتن.

لم تكف أم موسى عن البحث عنه، بل أمرت أخته بالبحث عنه في كل مكان (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ) أي تتبعي أثره(٢)، واعرفي خبره، وأين مقره ومرساه.

قال رشيد رضا: معنى القصة في الأصل :تتبع أثر الشيء للإحاطة به(٣).

---

(١) – زاد المسير ٤٢/٥

(٢) – روح المعاني ١٩١/٢

(٣) –تفسير المنار ١٦٢/١٢

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) عن بعد منها عنه وإعراض لئلا يفطنوا (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) أنها أخته جاءت تبحث عنه. قاله السدي(١).

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) أي من قبل أن نرده إلى أمه، وهذا تحريم منع لاتحريم شرع(٢).

(فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) يقول سيد قطب: إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره، وتكيد به لفرعون وآله، فتجعلهم يلتقطونه وتجعلهم يحبونه، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه وتحرم عليه المراضع، لتدعهم يحتارون به، وهو يرفض المراضع التي عرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول، حتى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح القدرة فرحة لهفتهم على مرضع، فتقول لهم: (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب(٣).

وينتهي المشهد وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة، معافى في بدنه، مرموقا في مكانه، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير.

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

يقول القرطبي: أي رددناه إلى أمه وقد عطف الله قلب العدو عليه، ووفينا لها بالوعد (كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) أي بولدها (وَلَا تَحْزَنَ) أي بفراق ولدها، (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أي لتعلم وقوعه، فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون، (وَلَكِنَّ

---

(١) – زاد المسير ٤٢/٥

(٢) – المرجع السابق

(٣) – في ظلال القرآن ٤٦/٢٠

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي لأكثر آل فرعون لايعلمون، أي كانوا في غفلة عن التقرير وسر القضاء، وقيل: أي أكثر الناس لايعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق(١).

هكذا ابتليت أم موسى فصبرت وسلمت أمرها إلى الله الذي لايضيع من توكل عليه، وألقت بفلذة كبدها في اليم خوفا عليه من بطش فرعون الطاغية، ولعل ما جال في خاطرها أن الأمواج سوف تقذف به بعيدا، فيأخذه بعض الصيادين، فيربى مع أولادهم كما يربى اليتيم خوفا عليه من الضواري، ورحمة به من الموت، ومهما يكن الحال فبقاؤه حيًا هو الهدف الذي ترجوه أم موسى، الحياة وأي حياة، فالحياة خير من الموت، هذا كل ما كانت ترجوه، وتشاؤه. غير أن مشيئة الله كانت تريد شيئا آخر أعظم وأعظم... تريد من هذا الطفل الملقى في اليم أن يكون له شأن وأي شأن! وأن يحيا حياة ليست ككل حياة، فأعده الله تبارك وتعالى بأن هيأ له أسبابا لم تكن لتحلم بها أم موسى؛ أعاده إلى فرعون وهي التي رمته في اليم خوفا عليه من فرعون، فتربى في حجره، وأنفق عليه، وحبب الله به قلوب عباده، وأعاده إلى حضن أمه لترضعه من ثديها بعد أن رفض كل ما عرض عليه من مراضع، بل وجعل لأمه مالا مقابل إرضاعها له، وهي التي كانت تتمنى أن تغذيه بحياتها من أجل أن تضمه ضمة أو تشمه شمة، فأعاده إليها كي تقرّ عينها ولاتحزن، وقد أقر الله عينيها، ثم عظم قدرها بأن جعل القضاء على الطاغية فرعون على يد هذا الغلام، فاقتص الله به من ظلامات فرعون للناس، ثم أعطاه الله النبوة والرسالة، فأي خير أعظم من هذا الخير، وأي نعمة أكبر من هذه النعمة؟

لقد صبرت أم موسى واحتسبت ما أصابها فأعطاها الله أجر الصابرين، وصدق الله: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (٢)

---

(١) -الجامع لاحكام القران ٣٥٤/١٣

(٢) - سورة الزمر ١٠

الفصل الثامن:

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

الطاهرة المطهرة، الصديقة بنت الصديق

وإفك المنافقين في القديم والحديث

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)

يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ(١))

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ) أي الكذب والافتراء، والمراد به ما أفك على عائشة رضي الله عنها؛ وذلك أن عائشة كانت تستحقّ الثناء بما كانت عليه من الأمانه والعفة والشرف(٢).

يقول سيد قطب: إن حادثة الإفك تكشف عن شناعة الجرم وبشاعته حيث تتناول بيت النبوة الطاهر الكريم وعرض رسول الله – ﷺ-؛ أكرم إنسان على الله، وعرض صديقه الصديق أبي بكر رضي الله عنه؛ أكرم إنسان على رسول الله – ﷺ-، وعرض رجل من الصحابة – صفوان بن معطل – الذي شهد له رسول الله – ﷺ- أنه لم يعرف عنه إلا خيرا.

هذا الحدث؛ حادثة الإفك، قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق، وكلف الأمة الإسلامية كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله – ﷺ- وقلب زوجته عائشة التي يحبها، وقلب الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن معطل، شهرا كاملا؛ علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لايطاق(٣).

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ – ﷺ- حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِنْهُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، وَأَثْبَتُ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا.

---

(١) – سورة النور ١١–٢٦

(٢) – تنوير الأذهان ٣/٥٠

(٣) – في ظلال القرآن ج ١٨ ص ٦٨ بتصرف

زَعَمُوا أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ- إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّه – ﷺ- مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ، غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ يَدَهَا، فَرَكِبْتُهَا فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ – ﷺ- اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ –لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ– حَتَّى نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي

التَّنزُّه فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ تَعِسَ مِسْطَحٌ! فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَمَا قُلْتِ! أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ! أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ-، فَسَلَّمَ فَقَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ. – قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا– فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ– ﷺ-، فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا، فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِه، فَأَمَّا أُسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْوُدِّ لَهُمْ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- بَرِيرَةَ فَقَالَ: يَا بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ؟ فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- مِنْ يَوْمِه، فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- : مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ؛ إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ. فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ

الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه! لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ! فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّه! وَاللَّه لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ. فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّه – ﷺ- عَلَى الْمِنْبَرِ فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ. وَبَكَيْتُ يَوْمِي لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي. قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، إِذْ اسْتَأْذَنَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّه– ﷺ- فَجَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ. قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ ثُمَّ قَالَ: يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّه – ﷺ- مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّه – ﷺ-! قَالَ: وَاللَّه مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّه – ﷺ-! فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّه – ﷺ- فِيمَا قَالَ! قَالَتْ وَاللَّه مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّه – ﷺ! قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ. فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللَّه لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّه مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ).

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ، وَلَكِنْ وَاللَّه مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّه – ﷺ- فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ، فَوَاللَّه

مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ- وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللَّهَ! فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ! فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ- ، فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...) الْآيَاتِ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ– وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا إِلَى قَوْلِهِ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ! إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ يَا زَيْنَبُ! مَا عَلِمْتِ مَا رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا! قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ.

قَالَ: وَحَدَّثَنَا فُلَيْحٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ مِثْلَهُ، قَالَ: وَحَدَّثَنَا فُلَيْحٌ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ مِثْلَهُ. (١)

إنها محنة ما بعدها محنة! الطاهرة المطهرة، الصديقة، تلوث شرفها ألسنة النفاق، ويتصدر ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين!

وإن الإنسان ليقف متعجبا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة من حياة الرسول – ﷺ- ، وأمام تلك الآلام التي لاتحتمل لعائشة رضي الله عنها

---

(١) – رواه البخاري : رقم ٢٤٦٧

زوجته المقربة له، وهي ماتزال فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، لم تعرف إلا الطهر والطيبة، وبراءة الضمير ونظافة التصور.

هاهي ترمى في أعز ماتعتز به المسلمة؛ ترمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في البيت الطاهر، ترمى في أمانتها، وهي زوج النبي الخاتم – ﷺ-، وترمى في وفائها، وهي الحبيبة المدللة القريبة من قلب رسول الله – ﷺ-، ثم ترمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام وبيت النبوة.

لقد رميت رضي الله عنها وهي المؤمنة الغافلة عن مثل هذا؛ إذ لم يخطر ببالها أن يقول أهل النفاق ماقالوا؛ فطهارتها وصفاء سريرتها، يحولان دون التفكير بأي سوء يمس الأخرين فكيف بالطاهرة المطهرة!

وتمتد الفترة حتى بلغت شهرا كاملا، ولم يترل الوحي على رسول الله – ﷺ- ليطمئن بالحقيقة، ويزورها رسول الله – ﷺ- بعد أن طلبت الاستشفاء في بيت أبيها من حمى أصابتها، فيفاتحها رسول الله – ﷺ- ويقول: (أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه. ووقع كلام رسول الله – ﷺ- كوقع الصاعقة؛ إذ إن في كلامه سمات شك فيما يقال، وهي لاتملك إلا الصدق فماذا تقول؟ فتطلب من والدها الصديق الملتاع أن يجيب عنها رسول الله – ﷺ- إلا أنه يقول والله لا أدري ما أجيب رسول الله – ﷺ-؛ وهو الذي قال قبل ذلك وقلبه يحترق: والله مارمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام وهي كلمة تحمل من المرارة ماتحمل.

ثم تقول عائشة رضي الله عنها لأمها أم رومان: أجيبي عني رسول الله رسول الله – ﷺ-، فتقول كما قال زوجها الصديق: والله ما أدري ما أقول لرسول الله – ﷺ-، فاضطرت عائشة للكلام والدفاع عن نفسها رضي الله عنها، فقالت: (لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم، وصدقتم به، فإن قلت

لكم إني بريئة لاتصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة منه لتصدقوني، والله ما أجد لي ولكم إلا ماقال أبو يوسف: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)(١).

وكانت أمها أم رومان تقول لها مخففة عنها صدمة الافتراء: (يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله قلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها وله ضرائر إلا حسدنها) (٢).

ورسول الله – ﷺ- يثقل عليه الواقع الأليم وتطول المدة والألسنة مازالت تقول وتتقول، ولحكمة أرادها الله لم ينزل فيها وحيا حتى يظهر كل إنسان على حقيقتة، ويستدعي رسول الله – ﷺ- أسامة بن زيد حبه القريب إلى قلبه، فيسأله عن عائشة رضي الله عنها، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين، ويبعث إلى علي بن أبي طالب وهو ابن عمه فيراه عليلا مهمومًا قلقا متألما فيقول له بأن الله لم يضيق عليك، وأراد بهذا تفريج كربة النبي – ﷺ-، ولكن هذه الكلمة لم تفرج الكربة ولعلها زادت من الألم الواقع على رسول الله – ﷺ-، ثم قال له: اسأل جارية تصدقك وسأل رسول الله الجارية(٣) فجزمت بطهارة عائشة ونقائها، وصفاء سريرتها.

وبعد شهادة أسامة رضي الله عنه وشهادة الجارية، أراد رسول الله – ﷺ- أن يواجه الخائضين في هذا الإفك، فصعد المنبر وقال: يامعشر المسلمين! من يعذرني في رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلا خيرا وماكان يدخل على أهلي إلا معي(٤). فحصل من بعض الصحابة تناور ومناوشة في الكلام، وهم في حضرة رسول الله –

---

(١) –رواه البخاري رقم٢٤٦٧

(٢) – تفسير القران العظيم ٢٨١/٣

(٣) –قيل بأنها بريرة المرجع السابق

(٤) – رواه البخاري ١٦٣/٣ ومسلم ٢١٢٩/٤

ﷺ-، وإن دل هذا، فإنما يدل على الجو المكهرب الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة، الخانقة من القيل والقال، وعندما تصل الأمور إلى مرحلة خطيرة، والآلام إلى قمتها، يتعطف الله تعالى، فينـــزل القرآن ببراءة الصديقة الطاهرة الشريفة العفيفة الحَصان الرزان، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذه الحادثة التي كادت تفرق الصف، وتوقع الفتنة بين الناس.

وأكرم الله الطاهرة المصون بآيات تتلى إلى يوم القيامة، وكانت تقول رضي الله عنها: (والله ماكنت أظن أن يترل الله تعالى في شأني وحيا يتلى. ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله بقران يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله – ﷺ- في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها).

يقول سيد قطب(١): لم تكن حادثة الإفك أمرا خاصا بعائشة رضي الله عنها، وحدها بل تجاوزه إلى شخص رسول الله – ﷺ-، ووظيفته بالجماعة يومها، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها، من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويسرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) هم عصبة متجمعة ذات هدف واحد، إنهم أهل النفاق عجزوا عن حرب الإسلام، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وماكان حديث الإفك إلا إحدى مكائدهم القاتلة، إنه كيد لئيم.

إن الآلام التي عاناها رسول الله – ﷺ- وزوجه الصديقة الطاهرة والجماعة المسلمة كلها ، إنها ضريبة الابتلاء الواجبة الأداء.

---

(١) – في ظلال القرآن ج١٨/ص ٧٦

ثم يطمئن الله نبيه والأمة المسلمة معه (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) هو خير لأن الله كشف أوكار المنافقين وأساليبهم الدنيئة، لقد عرف رأس النفاق كيف يختار مقتلا، لولا أن الله كان من ورائه محيطا، وكان لدينه حافظا، ولرسوله عاصما، وللجماعة المسلمة راعيا ومددا.

إنها معركة ضخمة لعلها من أضخم المعارك التي خاضها رسول الله -ﷺ-، وخرج منها منتصرا كاظما لآلامه الكبار، محتفظا بوقار نفسه وعظمة قلبه، وجميل صبره.

فلم يصدر عنه كلمة تدل على نفاد صبره، وضعف احتماله. والآلام التي أصابته لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته، والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه(١).

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج؛ (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) هذا هو الأولى؛ أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وأن يستبعدوا سقوطها في مثل هذه الحمأة، وزوجة نبيهم الطاهرة، وأخوهم الصحابي، هما من أنفسهم، فظنّ الخير بهما أولى، فإن ما لا يليق بهم، لايليق بمن هو خير منهم، لأن المؤمنين كنفس واحدة، ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضا: إنهم يقتلون أنفسهم(٢).

وفي هذا الباب يقول الشاعر :

بنو عمي قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصبني سهمي

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) وهذه الفرية التي نالت أعلى المقامات وأطهر الأعراض، ماكان

---

(١) - في ظلال القرآن ج ١٨/ص ٧٧ بتصرف

(٢) - فتح القدير ١٤/٤

ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة، وأن تشيع دون تثبيت ولا بينة، وأن تتقاذفها الألسن دون شاهد أو دليل.

لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء، وهم لم يفعلوا فهم كاذبون.

فهم لم يعرضوا الأمر على القلب واستفتاء الضمير، ثم لم يتثبتوا بدليل أو بينة.

وهاتان الخطوتان غفل عنهما المؤمنون في حادثة الإفك وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله – ﷺ-، وهو أمر عظيم؛ لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدا بعد هذا الدرس الأليم .

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

يقول سيد قطب(١): لقد احتسبها الله تعالى للجماعة المسلمة درسا قاسيا فذكرهم بفضله ورحمته ولم يمسهم بعقاب وعذاب، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم.

العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول الكريم – ﷺ- وزوجته وصديقه الصديق وصاحبه الذي لايعلم عليه إلا خيرا، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة، والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين، ولكن فضل الله تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين بعد الدرس الأليم.

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام، واختلت فيها

---

(١) – في ظلال القرآن ج ٨٠/١٨ بتصرف

المقاييس، واضطربت فيها القيم وضاعت فيها الأصول..

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

يصور القرآن الكريم هنا ماحصل، بأن لسانا يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا إمعان نظر، حتى لكأن القول لا يمر على الآذان ولا تتملاه الرؤوس ولاتتدبره القلوب.

(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

تتحدث الأفواه بغير وعي لما تقوله، ولا تعقل خطورة هذا القول، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه قبل ان تستقر في المدارك (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا).

أن تقذفوا عرض رسول الله – ﷺ-، وأن تلوثوا بيت الصديق الذي بقي طاهرا حتى قبل الإسلام، فكيف به بعد الإسلام؟ وأن تمسوا عصمة رسول الله – ﷺ- ورعاية الله له.

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء .

لقد كان ينبغي أن تجفل القلوب بمجرد سماعها، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تستنكر أن يكون هذا موضوعا للحديث، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدا عن ذلك الجو الطاهر الكريم .

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

وعندما تصل هذه اللمسة كما يقول (صاحب الظلال(١)) إلى أعماق القلوب فتهزها هزا وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت، عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم.

---

(١) – في ظلال القرآن ج ٢٨/ ٨١ بتصرف

(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

إنه الأسلوب التربوي المؤثر في توجيه الله تعالى للأمة المسلمة في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ماكان.

(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا)

ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع من تلك الموعظة (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

فالمؤمنون لايمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا من مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون.

(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ) كما بين في حديث الإفك وكشف عما وراءه من كيد، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يعلم البواعث والنوايا، والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها وتدبير أمرها، لذلك وضع النظم والحدود التي تصلح بها حياة الناس.

ثم يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

والذين يرمون المحصنات – وبخاصة أولئك الذين تجرأوا على رمي بيت النبوة الكريم– إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها، وبذلك تشيع الفاحشة في النفوس، لتصبح بعد ذلك شائعة في الواقع، وهذا ما يسمى بسياسة الخطوة خطوة، وهو من استدراج الشيطان للإنسان.

لهذا وصف الله تعالى الذين يرمون المحصنات المؤمنات الغافلات عن كل سوء، بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

يقول صاحب الظلال(١): وذلك جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية، يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها... ومن ثم يعقب: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) من ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي براها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفى على علمه شيء إلا العليم الخبير؟ ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

إن الحدث العظيم وإن الخطأ الجسيم، وإن الشر الكامن فيه، لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته، ذلك ماوقاهم السوء، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة، وهو يربيهم لهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين.

فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكا أن يصيبهم جميعا، لولا فضل الله ورحمته، صور لهم عماهم فيه بأنه اتباع لخطوات الشيطان، وماكان لهم أن يتبعوا خطوات عدوهم وعدو أبيهم من قديم.

وحذرهم مما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

خطوات الشيطان : مسالك الشيطان ومذاهبه وطرائقه التي يدعوهم إليها(٢).

إنها لصورة مستنكرة؛ أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه، وهم أجدر

---

(١) -في ظلال القرآن ٨٢/١٨

(٢) -فتح القدير ١٦/٤

الناس أن ينفروا من الشيطان، وأن يسلكوا طريقا غير طريقه المشؤوم، صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن، ويرتجف لها وجدانه، ورسم هذه الصورة ومواجهة المؤمنين بها يثير في نفوسهم اليقظة، والحذر، والحساسية، (ومن يتبع الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر).

وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي مال إليه المؤمنون الذين خاضوا فيه، وهو نموذج منفر شنيع.

إن الإنسان لضعيف، معرض للنزعات، إلا أن يدركه فضل من الله ورحمته حين يتجه إلى الله ويسير على نهجه.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١)).

فنور الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه، ولولا فضل الله ورحمته لم يتزكّ من أحد ولم يتطهر، فيزكي من يستحق التزكية، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد لقبوله والعمل به، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغيّ، والله سميع لأقوال عبادة، عليم بمن يستحق منهم الهدى من الضلال(٢).

ثم يدعو الله تعالى إلى الصفح والمغفرة بعد أن ذكر التزكية والطهارة للنفوس المؤمنة، وأمر بالصفح بين بعض المؤمنين وبعض.

وبيّن الله تعالى أن هذا الصفح يجلب الغفران من الله للذنوب.

قال تعالى: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

---

(١) -سورة النور ٢١

(٢) – تفسير القران العظيم ٢٨٦/٣

(٣) -سورة النور ٢٢

ولايأتل: الألية وهي الحلف أي لايحلف، أولو الفضل: أي الطَول والصدقة والإحسان.(١)

يقول إبن كثير: (وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا ينفع مصطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعدما قال في عائشة رضي الله عنها ما قال، وكان مسكينا لا مال له إلا ماينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان الصديق رضي الله عنه معروفا بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت الآية (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) قال الصديق: "بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا ياربنا" ، ثم أرجع إلى مصطح ما كان يصله من النفقة، وقال: "والله لا أنزعها منه أبدا"، في مقابلة ما كان قال: "والله لا أنفعه بنافعة أبدا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته(٢)).

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، ومايكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى: (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق، يقول: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه.

بذلك يمسح الله على آلام القلب الكبير، ويغسله من أوطار المعركة ليبقى أبدا نظيفا طاهرا زكيا مشرقا بالنور.

ذلك الغفران الذي يذكر الله به المؤمنين، إنما هو لمن تاب عن خطيئة رمي

---

(١) – فتح القدير ١٨/٤

(٢) – تفسير القرآن ٢٨٦/٣

المحصنات، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث وإصرار، كما قال (عبدالله بن أبي) فلا سماحة ولاعفو، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا، لأن الشهود لم يشهدوا، فإنّ عذاب الله ينتظرهم في الآخرة، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود.

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)

يقول ابن كثير: هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، خرج مخرج الغالب بأمهات المؤمنين أو بالدخول في هذا من كل محصنة، ولاسيما التي كانت سبب النـــزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنه.

وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر ومعاند للقرآن (١).

عن مسروق رضي الله عنه قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة رضي الله عنها، فقال مادحا لها:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل(٢).

يقول صاحب الظلال: ويجسم التعبير جريمة هؤلاء وبشاعتها، وهو يصورها رميا للمحصنات المؤمنات، وهن غافلات غارّات غير آخذات حذرهن من الرمية، وهن بريئات الطوايا، مطمئنات لايحذرن شيئا، لأنهن لم يأتين شيئا

---

(١) – تفسير القرآن ٢٨٧/٣

(٢) – رواه البخاري ٤٧٥٦ ومسلم ٢٤٨٨. والبيهقي في الدلائل ٧٣/٤

معنى حصان : عفيفة – رزان : كاملة العقل – ماتزن : تتهم – غرثى جائعة – الغوافل : الغـــافلات عـــن الشر

يريد مدحها بالعفة والرزانة وتبرئتها من أكل لحوم الناس بالغيبة

يحذرنه، فهي جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة.

ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة، ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ) فإذا بعضهم يتهم بعضا بالحق إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك، وهي مقابلة في المشهد مؤثرة على طريقة التناسق في التصوير القرآني.

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ) ويجزيهم جزاء العدل ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون لما كانو يستريبون.

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) ويختم القرآن الكريم الحديث عن حادثة الإفك ببيان عدل اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج ، وما كان يمكن أن تكون عائشة رضي الله عنها كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

ولقد أحبت نفس رسول الله — ﷺ- عائشة حبا عظيما، فما كان يمكن أن يحبها الله لنبيه المعصوم، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم. أولئك الطيبون والطيبات (مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) بفطرتهم وطبيعتهم، لايلتبس بهم شيء مما قيل.

(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) مغفرة عما يقع منهم من أخطاء، ورزق كريم دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم.

بذلك ينتهي حديث الإفك، ذلك الحادث الذي تعرضت فيه الجماعة

المسلمة لأكبر محنة، إذ كانت محنة الثقة في طهارة بيت رسول الله– ﷺ-، وفي عصمة الله لنبيه أن يجعل في بيته إلا العنصر الطاهر الكريم.

وقد جعلها الله معرضا لتربية الجماعة المسلمة، حتى تشف وترف وترتفع إلى آفاق النور في سورة النور.(١)

يقول ابن كثير في قوله تعالى (أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ): أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان، (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) أي بسبب ماقيل فيهم من الكذب.

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) أي عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله – ﷺ- عائشة في الجنة. (٢)

ولابدهنا من وقفة لمنانصرة أم المؤمنين الطاهرة المطهرة، في زمن كنا نظن فيه أن حادثة الإفك قد انتهت بانتهاء المنافقين؛ عبدالله بن أبي بن سلول ومن سار على نهجه، وأن الله تعالى أنزل مافيه البيان الكافي ليقطع ألسنة السوء، ويطهر المجتمع الإسلامي من أرجاسهم، إلا أنه ظهر في نهاية عام (١٤٣١) للهجرة من أحفاد ابن سلول رجل يدعى (ياسر الحبيب(٣)) وهو رافضي من روافض دولة الكويت، عاد ليطرح حادثة الإفك على أنها كما قال أسلافه المنافقون، ويتهم فيها الطاهرة المطهرة بما اتهمها به المنافقون الأوائل، فالتقى المنافقون الأواخر مع المنافقين الأوائل، ليكملوا نفس الطريق في الطعن واللعن على المبرأة من فوق سبع سموات، والطعن فيها هو طعن ببيت النبوة الذي عصمه الله وطهره تطهيرا.

ومن حق أمنا عائشة رضي الله عنها، لا أقول أن نسرد بعض الصفات في

---

(١) – في ظلال القران ٨٤/١٨

(٢) – تفسير القرآن العظيم ٢٨٩/٣

(٣) – ياسر الحبيب وهو (الخاسر البغيض) كما سماه أهل السنة بالكويت يحمل الجنسية الكويتية والجنسية البريطانية ، فطالب أهل الصلاح بالكويت بإسقاط الجنسية الكويتية عنه وفعلا تم ذلك، قال عنه حسن نصر الله أنه إنسان غير معروف ولاقيمة له أراد لنفسه أن يكون له مكان فقال ماقال وكذلك قالت إيران على لسان مرشدها خامنئي بأن الرجل لاقيمة له أراد أن يصنع لنفسه قيمة .وشهد شاهد من اهلها

الدفاع عنها، بل اقول نبيض صفحاتنا بالدفاع عن حبيبة خير الخلق، وخاتم الأنبياء والمرسلين، زوجة العباد إلى رب العالمين، الطاهرة المطهرة الحصان الرزان، العفيفة الشريفة بل هي العفة بعينها والشرف بذاته.

لقد هبت أقلام الحق وألسنة الصدق والمراجع السنية في كافة أرجاء الأرض، تبين جرم ماقاله هذا الأفاك الرجيم، في حق أم المؤمنين رضي الله عنها، وكان على رأس هذه المراجع: الأزهر الشريف في أرض الكنانة، واللجنة الدائمة للبحوث العلمية و الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

وأنقل هنا نص البيان الجامع والمؤصل الذي صدر عن اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في السعودية في الدفاع عن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما في تاريخ ٢ ذو القعدة (١٤٣١هـ). وقد ورد في البيان ما يلي:

(بعد الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله – ﷺ- ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء على ما تناقلته وسائل الإعلام من القذف والسب والطعن في عرض زوج النبي – ﷺ-، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مكذبا للكتاب والسنة المطهرة. وإحقاقا للحق ودفاعا عن عرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي هو عرض النبي – ﷺ-، كتبت اللجنة البيان الآتي :

إن من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وجوب محبة صحابة رسول الله – ﷺ- وتوقيرهم والترضي عنهم، فهم الذين صحبوا خاتم الأنبياء والمرسلين، وهم الذين عايشوا نزول الوحي، وهم الذين مدحهم الله في كتابه، وأثنى عليهم المصطفى – ﷺ- في سنته، وكفى بذلك منقبة وفضيلة.

قال تعالى :وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة /١٠٠)

وقال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح /١٨)

وقال تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح /٢٩)

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام كما عند البخاري ومسلم أنه قال: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم"، وقال أيضا – ﷺ-: "لاتسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدا ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" متفق عليه.

والأحاديث في تزكيتهم وذكر فضائلهم جماعة وأفرادا كثيرة جدا.

ومن أصول اعتقاد أهل السنة كذلك وجوب محبة آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام، ومعرفة حقهم، وتنزيلهم المنزلة اللائقة بهم، فهم وصية رسول الله كما ثبت بذلك الخبر من قوله عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم: "أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثا" وقد روى البخاري ومسلم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: "والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله – ﷺ- أحب إلي أن أصل من قرابتي" وقال رضي الله عنه كذلك كما في صحيح البخاري: "ارقبوا محمدا في أهل بيته" .

ولا شك أن أزواجه وذريته عليه الصلاة والسلام، من أهل بيته، ويدل لذلك قوله تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (الأحزاب/٣٢-٣٣)

ومن معتقد أهل السنة والجماعة أن المرء لا يبرأ من النفاق إلا بسلامة المعتقد في الصحابة وآل البيت.

يقول الطحاوي: "ومَن أحسنَ القولَ في أصحاب النبي وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذريته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق" وقال: "ونحب أصحاب رسول الله – ﷺ- ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".

وبهذا يتبين أن سب صحابة رسول الله – ﷺ-، أو التعرض لعرضه عليه الصلاة والسلام بقذف أزواجه، جرم عظيم، وخصوصا الصديقة ابنة الصديق، وهي المبرأة من فوق سبع سماوات، وكانت أحب أزواج النبي إليه، وكانت أفقه نساء الأمة على الإطلاق، فكان الأكابر من الصحابة رضوان الله عليهم إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها.

ومناقبها رضي الله عنها مشهورة وكثيرة، فقد وردت أحاديث صحيحة بخصائص انفردت بها عن سواها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، منها:

١. مجيء الملك بصورتها إلى النبي – ﷺ- في سرقة من حرير قبل زواجها به – ﷺ-؛ فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "قال رسول الله – ﷺ- أُرِيتك في المنام ثلاث ليال؛ جاءني بك الملك في سرقة من حرير، فيقول هذه امرأتك فاكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه ".

٢. ومن مناقبها رضي الله عنها أنها كانت أحب أزواج النبي – ﷺ-، وقد صرح بمحبتها لما سئل عن أحب الناس إليه؛ فقد روى البخاري عن عمرو

بن العاص رضي الله عنه أنه أتى النبي – ﷺ-، قال: فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة" قلت: فمن الرجال؟ قال: "أبوها". قال الحافظ الذهبي: (هذا خبر ثابت). وماكان – ﷺ- ليحب إلا طيبا، وقد قال: "لوكنت متخذا خليلا من هذه الأمة لاتخذت أبا بكرا خليلا، ولكن أخوة الإسلام أفضل". فأحب النبي – ﷺ- أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله – ﷺ-، فهو حري أن يكون بغيضا إلى الله ورسوله، وحبه -- ﷺ- لعائشة كان أمرا مستفيضا.

٣. ومن مناقبها رضي الله عنها نزول الوحي على النبي – ﷺ- وهو في لحافها دون غيرها من نسائه – ﷺ-؛ فقد روى البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه قال: (كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة. قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله – ﷺ- أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان أو حيث ما دار. قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للرسول – ﷺ-، قالت: فأعرض عني، فلما عاد لي ذكرت له ذلك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة، ذكرت له، فقال: "يا أم سلمة لاتؤذيني في عائشة! فإنه والله مانزل علي الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها". قال الحافظ الذهبي: (وهذا الجواب منه دل على أن فضل عائشة على سائر أمهات المؤمنين بأمر إلهي وراء حبه لها وأن ذلك الأمر من أسباب حبه لها)).

٤. ومن مناقبها رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام أرسل إليها سلامه مع النبي – ﷺ-، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (قال رسول الله – ﷺ- يوما: "ياعائشة، هذا جبريل يقرئك السلام" فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى! –تريد رسول الله – ﷺ-)

قال النووي: وفيه فضيلة ظاهرة لعائشة رضي الله عنها.

٥. ومن مناقبها أن النبي – ﷺ- بدأ بتخييرها عند نزول آية التخيير، وقرن ذلك بإرشادها إلى استشارة أبويها في ذلك الشأن، لعلمه أن أبويها لايأمرانها بفراقه، فاختارت الله ورسوله والدار الاخرة، فاستن بها بقية أزواجه – ﷺ-؛ فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما أمر رسول الله – ﷺ- بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: "إني ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمري أبويك" قالت: وقد علم أبواي لم يكونا يأمران بفراقه. قالت: ثم قال: "إن الله جل ثناؤه قال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) سورة الأحزاب (٢٨– ٢) قالت: فقلت: أفي هذا أستأمر أبويّ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة. قالت: ثم فعل أزواج رسول الله – □– مثل ما فعلت).

٦. ومن مناقبها رضي الله عنها: أن رسول الله – ﷺ- كان يحرص على أن يمرّض في بيتها، فكانت وفاته – ﷺ- بين سحرها ونحرها في يومها، وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعاته في الدنيا، وأول ساعة من الآخرة، ودفن في بيتها؛ فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها (أن رسول الله – ﷺ- لما كان في مرضه جعل يدور على نسائه ويقول: "أين أنا غدا؟" – حرصا على بيت عائشة –، قالت: فلما كان يومي سكن). وعند مسلم عنها أيضا قالت: (كان رسول الله – ﷺ- يتفقد يقول: "أين أنا اليوم؟ أين أنا غدا؟" استبطاء ليوم عائشة، قالت: فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري). وروى البخاري أيضا عنها (أن رسول الله – ﷺ- كان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول: "أين أنا غدا؟ أين أنا

غدا؟" – يريد يوم عائشة – فأذن له أزواجه يكون حيث يشاء، فكان في بيت عائشة رضي الله عنها حتى مات عندها. قالت عائشة: فمات في اليوم الذي يدور علي فيه في بيتي فقبضه الله، وإن رأسه بين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقي، ثم قالت: دخل علي عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله – ﷺ-، فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته ثم مضغته، فأعطيته رسول الله – ﷺ-، فاستن به وهو مستند إلى صدري. وفي رواية أخرى بزيادة: فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة).

٧. ومن مناقبها رضي الله عنها إخبار رسول الله – ﷺ- بأنها من أصحاب الجنة؛ فقد روى الحاكم بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: (قلت: يا رسول الله مَن مِن أزواجك في الجنة؟ قال: "أما إنك منهن") وقد روى البخاري عن القاسم بن محمد أن عائشة اشتكت، فجاء ابن عباس فقال: (يا أم المؤمنين تقدمين على فَرَط صدق؛ على رسول الله – ﷺ- وعلى أبي بكر). وفي هذا فضيلة عظيمة لعائشة رضي الله عنها؛ حيث قطع لها بدخول الجنة إذ لا يقول ذلك إلا بتوقيف.

٨. ومن مناقبها رضي الله عنها، ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله – ﷺ- يقول: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" ففي هذا الحديث يبين – ﷺ- أن فضل عائشة زائد على النساء، كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة

٩. ومن مناقبها رضي الله عنها نزول آيات من كتاب الله بسببها، فمنها ما هو بشأنها خاصة، ومنها ما هو على الأمة عامة، فأما الآيات الخاصة بها والتي تدل على عظم شأنها ورفعة مكانتها: شهادة الباري جل وعلا بالبراءة مما رميت به من الإفك والبهتان، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ

عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢)لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ

لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)[١] وقد قال بعض المحققين فيها أيضا: ومن خصائصها: أن الله سبحانه وتعالى برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه أنه ما قيل فيها من الإفك كان خيرا لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرا لها ولا خافضا من شأنها، بل رفعها الله بذلك،وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيالها من منقبة ما أجملها.

وبهذا وغيره يتبين فضلها ومنـــزلتها رضي الله عنها وأرضاها، وإن قذفها بما هي بريئة منه تكذيب لصريح القرآن والسنة يخرج صاحبه من الملة، كما أجمع على ذلك العلماء قاطبة، ونقل هذا الإجماع عدد من أهل العلم.

فالواجب على كل مسلم محبة صحابة رسول الله – ﷺ-، والترضي عنهم أجمعين، وتوقيرهم ونشر محاسنهم، والذب عن أعراضهم، والإمساك عما شجر بينهم، فهم بشر غير معصومين، ولكن نحفظ فيهم وصية رسول الله – ﷺ-، ونتأدب معهم بأدب القرآن فنقول: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر /١٠)

هدى الله الجميع لصراطه المستقيم واتباع سيد المرسلين، وصحابته الغر الميامين، والحمد الله رب العالمين[٢].

---

[١]- سورة النور ١١-٢٦

[٢] – بيان اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية في الدفاع عن الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ٢ذوالقعدة ١٤٣١للهجرة

حكم العلماء في من يطعن بالطاهرة الصديقة بنت الصديق

قال ابن قدامة المقدسي: ومن السنة الترضي عن أزواج رسول الله – ﷺ- أمهات المؤمنين المطهرات المبرآت من كل سوء، أفضلهم خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق التي برأها الله في كتابه، زوج النبي – ﷺ- في الدنيا والآخرة، فمن قذفها مما برأها الله منه فقد كفر بالله العظيم(١).

وقال الإمام النووي في صدد تعداده الفوائد التي اشتمل عليها حديث الإفك: الحادية والأربعون: براءة عائشة رضي الله عنها من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله، صار كافرا مرتدا بإجماع المسلمين(٢).

وقال الإمام ابن القيم: اتفقت الأمة على كفر قاذف عائشة رضي الله عنها(٣).

وقال بدر الدين الزركشي: من قذف عائشة فقد كفر لتصريح القرآن الكريم ببراءتها(٤).

وقال الإمام السيوطي في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ) نزلت في براءة عائشة، وأن قاذفها يقتل لتكذيبه نص القرآن(٥).

وقال الإمام عبد الخالق الشريف الهاشمي إمام الحنابلة ببغداد في عصره: من رمى عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه فقد مرق من الدين ولم ينعقد له نكاح على مسلمة(٦).

---

(١) – لمعة الاعتقاد ص ٢٩

(٢) – شرح النووي على صحيح مسلم ١١٧/١٧

(٣) –زاد المعاد ١٠٦/١

(٤) –الإصابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٥

(٥) – الإكليل في إستنباط التنزيل ص ١٩٠

(٦) – الصارم المسلول ص ٥٦٦

وقال الإمام ابن حزم بإسناد إلى هشام بن عمار، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: من سب عائشة قتل لأن الله تعالى يقول في عائشة رضي الله عنها: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال مالك: فمن رماها فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل(١).

لقد ابتليت عائشة رضي الله عنها بابتلاء هو من أشد الابتلاءات التي تبتلى بها العفيفة الطاهرة الشريفة، ولم يسبقها في هذه المحنة إلا مريم ابنة عمران أم النبي عيسى عليه السلام، وقد أدرج – ﷺ- اسم عائشة في الحديث الذي ذكر فيه مريم؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله – ﷺ-: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)(٢)(٣).

وفي حديث آخر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ما أشكل علينا –أصحاب رسول الله – ﷺ- حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما(٤).

رضي الله عن الصديقة، فبالرغم من شدة المحنة وقبح التهمة، صبرت صبر المحتسب، وكاد كبدها ينفطر، وجف الدمع من مآقيها فلم يعد لديها ما يرطب وجنتيها فيخفف بعض آلامها، وشحب لونها، وضعفت قوتها البدنية، إلا أن ذلك لم

---

(١) –المحلى لابن حزم ٥٠٤/١٣

(٢) – رواه البخاري حديث رقم ٣٤٨٥ ، ومسلم رقم ٤٤٥٩

(٣) – تنوير الأذهان ٣٦١/٤ يقول صاحب تفسير روح البيان: وإنما شبهت عائشة بالثريد لأن العرب كانوا لايؤثرون على الثريد شيئا حتى سموه بجبوحة الجنة، ذلك لأن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة، وسهولة التناول، وقلة المؤونة في المضغ، فضرب به مثلا، ويدل هذا على ما أعطيته عائشة رضي الله عنها من حسن الخلق وحلاوة المنطق، وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة، ورصانة العقل، والتحبب إلى البعل، فهي تصلح للتبعل والتحدث، والاستئناس بها، والإصغاء إليها، وحسبك أنها عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم مالم يعقل غيرها من النساء، وروت مالم يرو مثلها من الرجال

(٤) –أخرجه الترمذي في سننه في المناقب وقال هو حديث حسن صحيح غريب ، جامع الأصول ١٣٤/٦

يضعف إيمانها بربها، بل كان قلبها عامرا بالإيمان وصدق اليقين بأن الله سيبرئها، وأن الله تعالى وعد عباده الصالحين في قوله: (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ)(١).

وكانت تقول في أشد حالات الضغط النفسي والقهر الاجتماعي ماقاله يعقوب عليه السلام: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)(٢) أي قلب هذا الذي يقطر بالشهد في زمن الشدة والقحط؟

إنه قلب أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق، التي تربّت في حجر رسول الله - ﷺ -، وكانت في الربيع التاسع من عمرها كالوردة تفوح بالعطر في بيت النبوة، فعلمها وأدبها وهذبها، ورباها على خلق النبوة وتوجيهات الوحي، فأصبحت معلمة الرجال، بل معلمة الأجيال رضي الله عنها وأرضاها وجعلها في عليين، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

* * *

(١) - سورة الصافات (١٧٢).

(٢) - سورة يوسف (١٨).

الخاتمة:

مما لاشك فيه أن فهم العقيدة فهما سليما، هو المقدمة لفهم الابتلاء وفقهه وأبعاده ومراميه، والحكم المستنبطة منه، فيستفيد المسلم من المحنة لتصبح في حقه منحة، ولو أردت اختصار بعض مايهدف إليه الابتلاء في حياة المسلم لتبين مايلي:

١- شمول المحنة لأهل الخير والفضل والصلاح في شتى الأزمان، وهي مستمرة في مختلف الأجيال من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم خير البرية، ويليهم عهد الصحابة وتابعيهم بإحسان، ومن سار على طريقهم إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[١].

٢- الابتلاء سنة من سنن الله في حياة الناس لاتتخلف؛ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢].

٣- قد يكون الابتلاء بسبب المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[٣].

٤- وقد يكون علامة صحة ودليل صواب؛ لأن الابتلاء سبب في رجوع الإنسان إلى ربه؛ فقد ينسى الإنسان هذا المعنى في زحمة الحياة ومشاغلها، فيأتي الابتلاء ليكشف له حاجته الدائمة إلى ربه، وطلب العون منه، فيرفع يديه إلى الله، ويلقي بنفسه في محراب التضرع والتوبة والدعاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[٤].

---

(١) - سورة البقرة (١١٤).

(٢) - سورة الفتح (٢٣).

(٣) - سورة الشورى (٣٠).

(٤) - سورة الأنعام (٤٢).

٥- الابتلاء يظهر معدن الإنسان إن كان صافيا أو فيه شوائب، قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)(١).

٦- الابتلاء يقتضي من المسلم الرضا بالقضاء والقدر، قال تعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)(٢).

٧- المحنة عامة لكل أطياف المجتمع؛ فتصيب النبي كما تصيب الفرد العادي، وتصيب الغني كما تصيب الفقير، وتصيب الأنثى كما تصيب الذكر.

وللأنبياء النصيب الأكبر؛ قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص: قلت: يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال : "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة)(٣).

٨- لاينبغي للمسلم أن يتمنى البلاء، ولكن لو وقع، فعليه أن يصبر ويحتسب قال تعالى: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ). (٤)

٩- لم يستثن أعداء الإسلام أهل الطهر والعفاف من اتهامهم بالسوء، وهذا ديدنهم في القديم وفي الحديث.

---

(١) - سورة محمد (٣١).

(٢) - سورة البقرة (١٥٥-١٥٧).

(٣) - رواه أحمد، وصححه أحمد شاكر (٣/٧٨).

(٤) - سورة آل عمران ١٨٦

١٠- يجب على الدعاة إلى الله ألا يضعفوا أمام شبهات الأعداء مهما كانت قبيحة، فقد اتُّهم من هو خير منهم؛ أشرفُ البيوت وأطهر الناس.

١١- المحنة إذا تعامل معها المؤمن بصبر وفقه أبعادها، فتصبح منحة تقوي عزيمته وتزيد إيمانه وتسليمه لله تعالى.

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[1].

وصلى الله على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه وسلم، والحمدالله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

[1] - سورة الأحزاب ٢٢

المصادر والمراجع

حرف الألف

١- إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٨م.

٢- أخلاق النبي في القرآن والسنة، أحمد الحداد، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٩م.

٣- أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي، دار السلام ٢٠١٠م.

٤- أدب الدنيا والدين، علي الماوردي، تحقيق محمد راجح، دار اقرأ ١٩٨٥م.

٥- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ناصر الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م.

٦- أدب الطلب ومنتهى الأرب، محمد علي الشوكاني، دار ابن حزم ١٩٩٨م.

٧- أعلام النبوة، علي الماوردي، طبعة الأزهر ١٩٧١ م.

٨- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مكتبة البشائر، عمان ١٩٩٠م.

٩- ضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥ م .

١٠- أصول الفقه، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨م.

١١- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م.

١٢- الإصابة لما استدركته عائشة على الصحابة، بدر الدين الزركشي، تحقيق رفعت عبد المطلب، الشركة الدولية للطباعة ١٤٢١هـ.

١٣- الإكليل في استنباط التنـــزيل، جلال الدين السيوطي، تحقيق سيف الدين الكاتب، دار الكـتب العلمية، بيروت.

حرف الباء .

١٤- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦ م.

١٥- البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن كثير، تحقيق علي شبدي، دار أحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م .

١٦- البحر المحيط، محمد عبد الله الزركشي، دار الكتب ١٩٩٤م.

حرف التاء .

١٧- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٥م.

١٨- التعريفات، علي محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ.

١٩- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٦م.

٢٠- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٦ م.

٢١- التفسير الكبير، محمد عمر فخر الرازي، مطبعة القاهرة ١٩٥٩م.

٢٢- تفسير البحر المحيط، محمد يوسف حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٢٣ - تفسير البغوي (المسمى معالم التنزيل) حسين بن مسعود البغوي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٢٤- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل البروسوي، تحقيق محمد علي الصابوني، دار الفكر بيروت ١٩٨٨ م.

٢٥- تفصيل آيات القرآن الحكيم، جول لابوم، نقلها للعربية محمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٩م.

حرف الجيم .

٢٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الهجرة ٢٠٠١ م.

٢٧- الجامع لأحكام القرآن، محمد أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني، دار الكتب المصرية ١٩٦٤م.

٢٨- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد أبي بكر بن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت١٩٩٧م.

٢٩- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمن الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٧٥م.

٣٠- جامع الأصول في احاديث الرسول، مجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، بيروت ١٩٦٩م.

حرف الحاء .

٣١- حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، دار الجيل، بيروت ٢٠٠٥م.

٣٢- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إسماعيل الأصفهاني، دار الراية، بيروت ١٩٩٩م.

٣٣- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، توفيق الواعي، دار الوفاء ٢٠٠٠م.

٣٤- حاشية الصاوي علي الجلالين، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٣م.

حرف الدال .

٣٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٤م.

٣٦- دلائل النبوة، أحمد حسين البيهقي، تحقيق قلعه جي، دار الكتب العلمية، القاهرة ١٩٨٨م.

٣٧- دراسات إسلامية، سيد قطب، دار الشروق بيروت ١٩٧١م.

٣٨- دقائق التفسير، الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع محمد الجليند، مؤسسة علوم القرآن الكريم، بيروت ١٤٠٦هـ.

حرف الراء .

٣٩- رسائل الإصلاح، محمد خضر حسين، دار النور ٢٠١٠م.

٤٠- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ.

٤١- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٤م.

٤٢- الرياض النضرة في مناقب العشرة، أحمد عبد الله الطبري، تصحيح محمد الحلبي، طبعة مصر ١٩٥١م.

حرف الزاى .

٤٣- الزهد والرقائق، عبدالله بن مبارك المروزي، تحقيق الأعظمي، دار ابن حزم، بيروت ٢٠٠٤م.

٤٤- زاد المعاد، محمد أبي بكر الزرعي الملقب بابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٩م.

٤٥- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٦٠م.

حرف السين.

٤٦- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.

٤٧- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق الألباني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٨- سنن الدارمي، عبدالله عبد الرحمن الدارمي، إحياء علوم السنة، بيروت ١٩٩٠م.

٤٩- سنن الدارقطني، علي عمر الدار قطني، تحقيق مجدي الشوري، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٥٠- السنن الكبرى أحمد الحسين البيهقي، دائرة المعارف النظامية، الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ.

٥١- السنن الكبرى، أحمد شعيب النسائي، تحقيق حسن شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١م.

٥٢- السيرة النبوية، عبدالله يوسف بن هشام الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٩م.

٥٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٩هـ.

حرف الشين .

٥٤- شرح صحيح مسلم، محي الدين النووي، دار الفكر، بيروت ١٩٧٢م.

٥٥- شفاء الغليل، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٠م.

٥٦- شمائل الرسول ودلائل نبوته، إسماعيل بن عمر بن كثير، مجموعة النيل، القاهرة ٢٠٠٠م.

٥٧- الشفا، للقاضي عياض، تحقيق عبد الله الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠١م.

شرح لمعة الاعتقاد عبد الله أحمد بن قدامة المقدسي، دار ابن القيم ١٤٠٧هـ.

حرف الصاد .

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الفارابي، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم، بيروت ١٩٨٧م.

صحيح البخاري، المكتبة الشاملة، تحقيق مصطفى البغا (موقع إلكتروني).

صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٧٩م.

الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق الحلواني والشدوري، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٧هـ.

صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامية، بيروت ١٩٨٨م.

صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦م.

صحيح مسلم، المكتبة الشاملة، المكتر الإسلامي (موقع إلكتروني).

صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن، بيروت ١٩٨١م.

حرف العين .

عصمة الأنبياء، فخر الدين الرازي، مكتبة الإرشاد، بيروت ١٩٦٠م.

علوم القرآن، نور الدين عتر، دار البشائر، بيروت ١٤٠٩ هـ.

عمدة القاري، شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، المطبعة المنيرية، القاهرة ١٩٢٩م.

حرف الغين .

غرائب القرآن، الحسن محمد النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٥م.

حرف الفاء .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، محمد علي الشوكاني، دار الأندلس، جدة ١٩٩٤م.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٦٠.

فضائل القرآن، القاسم بن سلام، تحقيق وهبي سليمان الغاوجي، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨١م.

في ظلال القرآن، سيد قطب، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٠م.

حرف القاف .

القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، مؤسسة المختار، ٢٠١٠م.

حرف الكاف .

الكشاف، محمد عمر الزمخشري، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٦٦م.

الكامل في التاريخ، علي محمد بن الأثير، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.

حرف اللام.

لباب التأويل، علي إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن، دار الفكر، بيروت ١٩٦٣م.

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٥.

حرف الميم .

محاسن التأويل، محمد جمال القاسمي، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٧٠م.

مجموعة الرسائل والمسائل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، إحياء التراث العربي، بيروت.

المحلى، علي أحمد بن حرم الظاهري، دار الجيل بيروت.

مختار الصحاح، محمد الرازي، مكتبة لبنان، بيروت ٢٠٠٦م.

مدارج السالكين، محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣م.

المصباح المنير، أحمد الفيومي، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٦٢م.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، إسطنبول ١٩٨٤م.

مسند أحمد بن حنبل، تحقيق أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٨م.

المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، تحقيق ونشر مجمع اللغة العربية، القاهرة

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت ١٩٧٩م.

مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٤م.

حرف النون .

النبوءات، شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٨٦م.

نظرات في القرآن الكريم، محمد الغزالي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥٨م.

حرف الهاء .

هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن، محمد صالح البنداق، مطبعة الآفاق، بيروت ١٩٨١م.

حرف الواو .

واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة، جدة ١٩٨٦م.

الوسيط في تفسير القرآن المجيد، علي الواحدي النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٤م.

الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، ٢٠٠٦ م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤٥
الفصل الأول: الابتلاء سنة الله فى خلقه	٥١
الفصل الثانى: ابتلاء طالوت وجنوده المؤمنين بجالوت وجنوده الكافرين	٥٧
الفصل الثالث : (الابتلاء تمحيص للمؤمنين ومحق للكافرين)	٦٥
الفصل الرابع :(وجوب الصبر فى سبيل الله وتحمل المصاب)	٧٣
الفصل الخامس : (مؤمنو سحرة فرعون وحلاوة الإيمان رغم مرارة الزمان وقساوة المكان)	٧٦
الفصل السادس: (فتية أهل الكهف والفرار إلى الله).	٨٣
الفصل السابع : ابتلاء أم موسى بفلذة كبدها وصبرها على فراقه).	٨٨
الفصل الثامن (الطاهرة المطهرة الصديقة بنت الصديق).	٩٥
حكم العلماء فيمن طعن بالصديقة	١٢٢
الخاتمة	١٢٥
المصادر والمراجع	١٢٨
فهرس الموضوعات	١٣٧

***